



التمويه اللغوي في التواصل الإنساني دراسة لسانية

م. د. سعد صبار عبد الباقي محمد
جامعة الفلوجة / كلية العلوم الإسلامية



*The linguistic camouflage in human communication is a
linguistic study*

*M. Dr.. Saad Sabbar Abdul Baqi Muhammad
University of Fallujah - College of Islamic
Sciences*



ملخص البحث

يقوم البحث على أساس تحليل آليات التمويه اللغوي المكتشف والمحتجب بحسب البواعث النفسية للمتكلم وما يلتمح له بأساليب لغوية ملتوية لأجل التوصل إلى أغراضه التي يُظهرها بخلاف ما هي عليه معتمداً على السمة الاجتماعية للغة والوظيفة التواصلية لها، ومستمداً من حال مخاطبيه معاني إضافية لأصل الفكرة.

ويعرض البحث حثيثاً التمويه في مظاهر متداولة في التواصل الإنساني من الوجهة اللسانية العلمية، ويتمثل بوقائع من التراث وأخرى عصرية من التخاطبي اليومي، ويصف الممارسة الكلامية التزييفية عند من يتخذ طرقاً الالتفاف المشروعة كالصناعة الإبداعية أو غير المشروعة كالكذب والمغالطة.

ويهدف البحث إلى توضيح آثار التمويه اللغوي ونتائجه الإيجابية المكتشفة والسلبية المحتجبة في الأوجه ذات الأفتنة الخداعة المعتادة بين الناس من غير تخصيص فئة أو تحديد مجال.

الكلمات المفتاحية: (تمويه ، تلاعب ، تخاطب ، دلالة)

Abstract

The research is based on an analysis of the mechanisms of exposed and concealed linguistic camouflage according to the psychological motives of the speaker and what he hints at in twisted linguistic methods in order to reach his goals that he shows other than what they are based on the social characteristic of the language and its communicative function, and drawing from the state of his interlocutors additional meanings of the origin of the idea.

The research presents the reasons for camouflaging in common aspects of human communication from the scientific linguistic point of view, and is represented by facts from the heritage and modern ones from daily communication, and it describes the false verbal practice of those who take legitimate ways of circumvention, such as creative or illegal work such as lying and fallacy.

The research aims to clarify the effects of linguistic camouflage and its positive and negative consequences concealed in the faces with the usual deceptive masks among people without assigning a class or specifying a field.

Key words: (disguise, manipulation, communication, connotation)

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه الأمين وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحبه الغر الميامين، وبعد.

فقد منّ الله تعالى على البشر بالتعبير عمّا يخالجه نفوسهم، وزادهم بسطة في اختيار القول وتصريفه حيث يشاءون، وظلت اللغة أساس التواصل بينهم والوسط المطواع لكشف خباياهم أو حجبها، ومكّنهم سبحانه من إدارتها فيما يرونها حق رعائتها أو يحتالون فيمّوهونها.

اقتضت فكرة البحث الموسوم (التمويه اللغوي في التواصل الإنساني - دراسة لسانية) التركيز على الاستعمال الحيّ للغة وتجنّب القواعد المفرّغة من سياقاتها؛ لأن القائم بالتمويه اللغوي يختلس اللحظة التواصلية كي يُموّه مستغلا غفلة المخاطب لتحقيق ما دبّر ونوى.

أهمية الموضوع

ترجع أهمية دراسة التمويه في اللغة إلى ضرورة تعرف طاقاتها المهجورة، والتنوع الذي توجبه تفرّعاتها، ويمثل التمويه -كما أرى- الجانب المؤذي من التواصل الإنساني في الأعم، واهتم الدارسون بوظيفة البيان والإيضاح بشكل أكبر من اهتمامهم بالنقيض والمقابل لذلك، في حين لم تكن اللغة يوما أحادية النهج ولا مائلة إلى جانب على حساب آخر؛ لأن الاستعمال هو ما يضيف عليها سماته ويفرض أحكامه، لذلك لا مناص من الإلمام بأكبر مساحة ممكنة منها والتلميح إليه من أجل الغنى المعرفي والتوازن الموضوعي.

سبب اختيار الموضوع

تتصدر أسباب اختياري هذا الموضوع الرغبة في تحقيق وعي تُلمس آثاره العملية في التواصل الإنساني، والمران على مداخل الكلام ودهاليزه المتعرجة، والسبب الآخر اعتقادي أن التمويه أهدر التعاملات الإنسانية؛ لأنه كمن يأتي البيوت من ظهورها، والله تعالى يقول: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾^{البقرة 189}، هذا في معظمه لأن ثمة تمويهها يتم توظيفه في نقاء سريرة وخلوها من دوافع النفاق والغش كعبارات التهئة الصادرة من رجل يخفي حزنه بسبب أمر ألمّ به، أو غير ذلك مما يقتضيه التواصل الإنساني وتقرره الآداب الاجتماعية.

ويأتي سبب ثالث عرضي هو طموحي في مجارة الدرس اللساني العالمي ومواكبة البحوث العلمية الرصينة لخوض هذا الميدان الشائك من ميادين دراسة اللغة التي لا يغلّق البحث فيها ولا يملّ، ومن هنا نسجت البحث على منوال موضوعه، يضاف إلى هذه الأسباب أمران: أولهما وثوقي بأن اللغة غنية بالآليات المناورة والخداع مما يجعلها مرنة إلى حد القدرة على استيعاب فيض من الخطط ومسيرة عزارة الألفاظ والمعاني، وثانيهما ما في التواصل الإنساني للأسف من تعمد تضليل الآخرين وادّعاء الحق والمثالية، فكان التحليل اللغوي من أهم موضحات هذه الوظيفة التواصلية في المجتمع.

أهم الصعوبات

ومن الصعوبات التي واجهتني عند تناوله لزوم التقيد بدراسة اللسانيات العامة وعدم حصر الأفكار في خصائص لغة بعينها والاشتغال بما يصدق على اللغة الإنسانية مهما كانت وحيثما وجدت، وأنت طبيعة الموضوع لتؤازر هذا المنحى نظرا إلى أن التمويه صفة عامة بين البشر، وإن كان ما ورد من شواهد وأمثلة عربية اللسان إلا أن دلالاتها شاملة للسواد الأعظم من الناس في أي زمان وأي مكان، ويبقى توفيق الله تعالى وعونه سابقا جهد العبد على الإطلاق ورديفا لسعيه المثمر على الدوام.

لماذا التواصل الإنساني؟

إن التواصل الإنساني من أنضج العينات التي ينجز فيها الحدث الكلامي لما يتصف به الإنسان من المراوغة والتناقض والازدواجية بين طبع وتطبع، فهل اللغة مطواعة له وتعكس أفكاره وحوالجه نفسه أو هي أداة تخبّئ ظنونه وتتمرد على إرادته وتلغي آماله، وبعبارة أخرى هل اللغة أقرب إلى الإرادية أو تفرض وتقيّد أكثر مما تطيع وتطوع؟ لا يتحقق التخفي اللغوي المشوب بالمكر إلا في التواصل الإنساني وهو من أبشع العلاقات بين بني الإنسان وأسوأ من التمويه في العالمين الحيواني والنباتي لأنهما واقعان تحت وطأة الجبر والتسيير؛ لذلك يُشبّه صاحب التمويه الماكر أحيانا بالحرباء في التلّون الخدّاع، وقد قيل:

ولا خير في ود امرئ متلّون إذا الريح مالت مال حيث تميل(1)

يجري في أثناء التواصل الإنساني تقابل بين معاني الألفاظ المنطوقة والمعاني المرتسمة في الذهن على وفق مبدأ التعاون بين المتخاطبين، وقد يعتري التمويه اللغوي هذه العملية التلقائية للإيقاع بالآخرين، ويغتمم المّمّوه غفلة المخاطب إذا كان التمويه مكافئا لها أو يزيد عليها.

منهجية البحث

من المثمر لاسيما في الدراسات القائمة على المنهج الوصفي أن تُدرس مستويات اللغة الأولية(2) بالنظر إلى بنيتها العميقة وتعامل على أنها خزّين محفز للبنية السطحية وواصفة للأبعاد التواصلية والخطاب الحيّ المُعاش، وعند البحث في التوظيف المقلوب للغة كما في هذه الدراسة لا بد أن يتم تجاوز التحليل الخاضع لظاهر تلك المستويات والتخلي ولو جزئيا عن مفهوم الجملة النمطي الضيق إلى آفاق دقيقة التفاصيل موضوعية العرض. لا يستقيم التحليل في ضوء هذه المجالات الخطابية إلا بالنظر إلى النصوص المصحوبة بفضاءات الاستعمال التي تتجاوز تحليل الكلمة والجملة والتي لا ترتبط بالتفاعل الكلامي بين طرفين أو أكثر فحسب بل يقع بعضها تحت تأثير الآخر وسلطته متقنعة بأشكال التمويه المتعددة بتعدد نيات المتكلمين وبواطنهم.

سرت على منهجين عام وتفصيلي، اتبعت في العام الوصف التحليلي للممارسة الخطابية كما هي من دون فرض سلطة عليها أو افتراض أحكام مسبقة أو تحسّب رقابة النحو الصارم أو اتباع ثوابت الخلق المثالي على حساب الموضوعية والمصدقية، ولو دققنا النظر في اللغة حال استعمالها بعيدا عن الإرغام لرأينا أن هذا هو السنن الذي اعتاد عليه

المتخاطبون، فلا بد إذن أن يشابهه الوصف التحليلي الأثاري الذي يجنب ما يعثر عليه أي عبث أو تطفل.

وكان المنهج التفصيلي في ثناياه الاسترسال النسبي في العرض النظري لحدائث الدراسة، والتعقيب بالاستشهاد من أمثلة مطردة المفهوم وقابلة للتكرار في مقامات مقاربة للمقام الأصيل الذي أنتجت فيه، ومقتبسة من الحياة الإنسانية التي لا تختص بالعربية وحدها من حيث المعنى العام، أي أنها لو ترجمت إلى غيرها من اللغات لقاربت وظيفتها.

أهم المصادر

اعتمدت فيه على مصادر تراوحت بين الطابع التواصلية الحجاجي مثل كتاب استراتيجيات الخطاب للشهري والنقدي مثل منهاج البلاغ للقرطاجني، والمنطقي مثل كتاب المنطق وفلسفة العلوم لـ (بول موى) وما يتداخل مع اللغة في إطارها الفلسفي والتخاطبي مثل كتاب اللغة والسحر للدكتور شبيب العجمي وكتاب اللغة والكذب لـ (فاينريش)، وغيرها.

خطة البحث

انتمت الخطة في مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة، لكل مبحث مطلبان، أما التمهيد فكان لا بد منه بسبب تشعب الموضوع وزوائده أودعت فيه ما للتمويه وما عليه، أما المبحث الأول فكان بعنوان التمويه اللغوي وجهات فهمه، اشتمل على مطلبين الأول عرفت فيه التمويه لغة واصطلاحاً وبيّنت في معناه الاصطلاحي رأياً قابلاً للنقد والرد متكناً على محيط اطلاعي الياسير، وكان عنوان المطلب الثاني التمويه اللغوي والمنطق عرضت فيه مدى منطقية التمويه من خلال الحديث عن اللغتين الطبيعية والاصطناعية، وأطلقت على المبحث الثاني عنوان التمويه اللغوي بين الانكشاف والاحتجاب، ضمن المطلب الأول منه كيفية صياغة التمويه اللغوي واتخاذ وسيلة أدبية منكشفة الدلالة ولا يقصد لذاته، وضمنت المطلب الثاني شرحاً عن تعمد التمويه اللغوي فيحتجب ويقصد لذاته مع سرد لأهم مظاهره في التواصل الإنساني، وختمته بأهم النتائج.

وأخيراً أدعو ربي سبحانه الذي يشهد بما بذلت فيه من أعمال نظر ولم أذخر وسعاً أن يتقبل هذا الجهد لعل قارئه أو بعضهم يبتوا شيئاً مما توحيته من ضرورة إجادة توظيف التمويه اللغوي والحد من ضرره ما أمكن؛ إذ لا مناص من الإقرار باشمال جميع لغات البشر عليه؛ لأن البشر أنفسهم معرضون للاشمال عليه، فليست اللغات – كما سأنبت إن شاء الله – إلا وجهها مستنسخاً من مستعملها نطقاً وفهماً وفكراً. والحمد لله رب العالمين.

الباحث

/ /

التمهيد

اتخذ الفلاسفة قديما من البيان وسيلة لعدم البيان وأسعفهم في ذلك ما للغة من طواعية وسعة في نظم الكلمات وتنسيق الجمل فتخبروا من الصور البيانية المموّهة ووظفوها في المواقف المناسبة لها وتباروا في عصف الأذهان لينظلي بيانهم المبهرج على مخاطبيهم وسلطوا تأثيرهم في من يصغي إليهم حتى يبرهنوا على رجحان أفكارهم ورجاحة عقولهم وانتصار مذاهبهم.

لهذا فالتمويه اللغوي قديم النشأة ويُعد نوعا من المهارات التي قلّما تخضع لقوانين ثابتة، وتقوى الحاجة إلى سبر غوره من الناحية اللسانية ولست أدعي اكتشافه ولا الإحاطة به ولكنها محاولة مخلصّة تسهم في ترميم هذا الجزء من الدراسة ولاسيما إذا عرفنا أن علم اللسانيات قد شغل جُلّ همّه على غاية الإيضاح والتبليغ ربما من باب الوفاء للغة في الوقت الذي يلزمنا المنهج الوصفي المحايد أن نعترف بأنها ليست إلا نسخة من مستعملاتها وتعبيرها عن شخصياتهم وما يضمرونه من الأغراض، وذلك بأن للنص معنى مقصودا مسيطرا عليه من المتكلم⁽³⁾ يتحكم فيه بوعي بعيدا عن العشوائية والتخبط، فاللغة تحاكي بينتها المكندسة بكتل من التمويه والالتفاف حول الحقائق والمماثلة في التواصل سواء كان ذلك تجاهلا أم تساهلا، عرضا أم غرضا.

التمويه من فنون التصرف اللغوي وأكثر ما يتجلى في الخطاب الذي يقوم على الإقناع وغسل الأدمغة ولاسيما في ميادين السياسة والترويج الإعلاني والدعاية للانتخابات أو لسلعة تجارية، وقد يُستغل مجال الفكر والمعرفة في إرساء قناعة أو اعتقاد منها الموضوعي وأكثرها يبطن التلفيق والكذب المزوّق.

اللغة أداة طيعة وعلى مستعملها تقع مسؤولية الإحسان أو الإساءة، وبمقدورهم تحويل مسارها من صدق إلى تضليل بما زوّدت به من قابلية إضفاء الظلال والإمكانات التطريزية من تنعيم وسكّ وسرعة وبطء وإحداث فجوات بين الكلمات واستيعابها شتى الأساليب، وقد قيل في المثل العربي: "ربّ كلمة تقول لصاحبها دعني"⁽⁴⁾.

ونحن نستبشع استغلال قدرات اللغة لكننا نقرّ بملكيتها في ستر الحقيقة بحيث تستدرج المتلقي إلى مصيدة التمويه، كما قد يعجب أحد ما بأذكاء اللصوص أو تلفيقات الكذبة، والأغرب من ذلك أن المخاطب قد ينزلق بإرادته عالما بما يمارس عليه من التضليل، أو قد يتشوق إلى ذلك كالذي يدفع أجرا لمشاهدة عرض للسحر وهو متيقن أنه مجرد خدعة؛ لأنه إما ملّ الوضوح وابتدل التصريح أو كانت لها أهداف يسرّها في نفسه. فلا غرو إذن أن تكون للغة يدان إحداها تشيّد والأخرى تهدم، وليست في معرض النصح أو الصدق فالقارئ الحصيف أوفر لمؤونة تكلف عناء ذلك.

المبحث الأول التمويه اللغوي وجهات فهمه المطلب الأول: التمويه في اللغة والاصطلاح

أولاً: التمويه لغة:

التمويه مصدر مؤه يمّوه، واشتق أصله لغة من الماء؛ لأنه يحسن كل شيء، "يقال: مؤهت عليه الحديث فعلت له ماء ونضارة حتى قبله، وهو التحسين والزخرفة لما باطنه قبيح" (5) وقال ابن فارس: إنه من "موهت الحديد وغيرها: طليتها بذهب أو فضة" (6)، وهذا المعنى اللغوي مُمَهَّد للمعنى الاصطلاحي الذي يهمننا من هذا المبحث.

وقريبا من هذا التوجه ما نراه في بعض المعاجم الحديثة، فقد جاءت معانيه من مؤه الكأس إذا طلاه بفضة أو ذهب وليس جوهره منهما، ومؤه الحق لبسه بالباطل وأفسده بظواهر خادعة، ومؤه عليه الخبر: زوره (7)، نلمح هنا تأصيل معناه من ماء الذهب وليس من مطلق الماء لإظهاره بريقا يخيل للرائي غير حقيقته، قال أبو هلال العسكري في معرض تفريقه بين التمويه والسحر: إنه "تغطية الصواب وأصله طلاء الحديد والصفير بالذهب والفضة ليوهم أنه ذهب" (8).

أما الأقرب إلى ما نحن بصدده فهو ما أورده ابن منظور، وذلك في قوله: إنه "التلبيس ومنه قيل للمخادع ممّوه، وقد مؤه فلان باطله إذا زينته وأراه في صورة الحق" (9). ومن أصحاب المعاجم من قيّد استعماله بمعاني الإساءة والإفساد وإلحاق الضرر فقال "مؤه الحديد وغيره إذا طلاه بذهب أو فضة، ومن ذلك تمويه الحديث وهو زخرفته بالباطل" (10).

ثانياً: التمويه اصطلاحاً:

لأجل بلوغ النظرة الشمولية والإسهام في توازن البحث كان مهما إبراز مفهوم التمويه الذي بقي متراخيا في الدراسة اللغوية على أساس أنه أمر ثانوي، لم يستقر له - في حدود اطلاعي - على مصطلح علمي حتى اليوم، أما مصطلحات نحو (التعمية والتورية والأحاجي والتعريض) (11)، فهي أقرب إلى علم البلاغة منها إلى اللسانيات التي يدور موضوعنا في فلكها، وإن مرّ البحث على سواها لمأما إيماننا منا بتداخل المعارف وتكاملها، ولمقتضيات التقصي الذين يوجبهما المنهج التحليلي، فكثرت وروده في علوم غير لغوية كالعسكرية التي تعول عليه بوصفه أحد أساليب الحرب المميزة، فليس هناك جيش لم يخدع ويُضلل (12)، وعندها يصلح تعريف الكفوي بأنه "إلباس صورة حسنة لشيء قبيح كاللباس الذهب للنحاس وغيره" (13).

يلحظ من الأصول اللغوية السالفة تضمنها المعنى الاصطلاحي، وأهمها ما فصله حازم القرطاجني بتفسيره في قوله: "والتموهيات تكون بطي محل الكذب من القياس عن السامع، أو باغتراره إياه ببناء القياس على مقدمات توهم أنها صادقة لاشتباها بما يكون صدقا، أو بترتيبه على وضع يوهم أنه صحيح لاشتباهاه بالصحيح، أو بوجود الأمرين معا في

القياس، أعني أن يقع فيه الخلل من جهتي المادة والترتيب معا، أو بالهاء السامع عن تفقد موضع الكذب وإن كان إلى حيز الوضوح أقرب منه على حيز الخفاء بضروب من الإبداعات والتعجيبات تشغل النفس عن ملاحظة محل الكذب والخلل الواقع في القياس من جهة مادة أو من جهة ترتيب أو من جهة المادة والترتيب معا⁽¹⁴⁾، فمصطلح التمويه عنده قريب من الكذب وليس بكذب لكنه مقيس عليه وإن كتمان إحدى المقدمات التي يتم تأسيس الخطاب عليها بمثابة تعويق للحقيقة وإصابة إحدى عينيها بما يجعل النتائج على غير ما يرتجى بل هي إلى الغلط والزيف أقرب، فالتمويه لا يُعمى ويُصمّ مثل الكذب، فقد قيل في أحد تعريفاته الاصطلاحية بأنه "إضافة طبقة رقيقة من الذهب فوق الإناء"⁽¹⁵⁾.

المطلب الثاني: التمويه اللغوي والمنطق

دأب الدرس اللساني على الوصف المجرد للغة في ذروة حالاتها في التواصل واستحضار عناصر الحدث اللغوي مهما بلغت هامشيته أو ضعف أثره في تقديم نتائج صادقة، ويتحقق ذلك بتحليل المادة العلمية في حال كونها "منغمسة في تيار الإنتاج والإبداع الموصل إلى التفاهم أو الوفاق"⁽¹⁶⁾ من جهة والموصل إلى التمويه لأجل التشغيب الكلامي من جهة أخرى فإن "اللغة الطبيعية لا يمكن لها أن تؤدي الحقيقة أداء صائبا إلا إذا خضعت لصارم إكراهات وحدة المعنى"⁽¹⁷⁾ وتأبى اللغات الطبيعية أن تكون حرفية المعاني بل تنفر عنه خلافا لمن يحددها ويخضعها للمنطق المتصل بخصائص اللغة اليونانية التي نبع بحلته الصورية منها.

أما علماء العرب فقد اختلف تصور المنطق عندهم في ظل النص القرآني والتراث الفصيح، وانحلّ ذلك الوثاق بين اللغة والمنطق؛ لأن العربية تختلف عن غيرها ولكن رأيهم واضح بأن اللغة ظلت تشوبها النزعة المنطقية مع تجدد قولهم إنه "لا بدّ أن يكون اللغوي بحق نزاعا إلى الشك في الحديث عن الأساس المنطقي للغة"⁽¹⁸⁾، سواء في ألفاظها الملموسة أم في ناحيتها التصورية والمعاني الذهنية.

إن محاولة استغراق سنن اللغات تنتج عنها قناعة بأن لكل لغة منطقتها، وليس لزاما أن يماثل أيّ منها المنطق اليوناني فهو "قائم على اللغة اليونانية ومرتبطة بها وبالتالي تكون قواعده غير ملزمة إلا لمن يتكلم عن هذه اللغة... ولو تم استخدام اللغة استخداما صحيحا لاستطعنا أن نصل إلى المعنى الصحيح دون حاجة إلى منطق"⁽¹⁹⁾، خلافا للفلاسفة اليونان الذين كانت غايتهم من منطقتهم تعليم لغتهم الوطنية وملء المجال السياسي الذي لا يتقوى قبضتهم عليها إلا باللغة وبلاغتها وخلق ثغرات فيها "لذلك كانوا يعلمون كيف يكسبون خصومهم بكل الوسائل باللعب بالألفاظ، بالاستعارات والكنائيات الجذابة، بخداع المنطق وتمويه الحقيقة"⁽²⁰⁾.

وربما تكون اللغة في جانبها النحوي متأثرة بالمنطق ومن صور هذا التأثير العلل النحوية والقول بالعمدة والفضلة والأصل والفرع وغير ذلك مما لا فسحة لتفصيله هنا.

ولكن ثمة منطوق يحمل مفهوماً آخر غير الصوري، إنه القانون الذي تسيّر عليه اللغة أو الخط الذي انتحاه أبنائها وهو المعهود من خطابهم، فهو بهذا الإطار مرتبط باللغة (اللامنتطقية)، فاللغة الطبيعية إذن أو ما اصطلاح عليها في اللسانيات الحديثة بـ (اللغة العادية) - كما أثبتها العالم الألماني (فتجنشتاين) (21) - تفارق اللغة المنطقية من هذه الحثيات، وهذا يزعزع القول بإمكان إيجاد (النحو الكلي) الذي سعى (تشومسكي) إلى البرهنة عليه، أما الذي يمكن إخضاعه للدراسة المنطقية الصرفة فهو النظريات اللسانية لا اللغة نفسها (22).

لا تقلّ اللغات الطبيعية صرامة عن ما عليه لغات العلوم فكلاهما يعملان بذات الكفاءة، لذلك فإن اللغات الطبيعية تحمل من الصدق والإحكام ما تفاخر به لغتي الرياضيات والمنطق (23).

ولأن التموية متناغم مع اللغة فقد ابتعد عن المنطق كما ابتعدت عنه اللغة التي تشكّل من جنسها وأبت أن تتكون منه "ولا جدال في أن اللغة في ذاتها لا توصف بالصدق، وإنما هي تفيد الصواب والخطأ على حد سواء، وهي تحتمل الحقيقة والبطلان معا على قدم المساواة" (24)، نستنتج من ذلك أن اللغة لا يحكمها قانون واحد ولا منطق مستقل ولا يتكرر فيها استعمال كما لا يمكن وضع القدم في النهر مرتين.

ونزداد ثقة بمزايلة اللغة الطبيعية للمنطق الصوري حين نرى الصدق يخلو من معيار يستدل به عليه، وقد عجز عن إثبات معياريته حتى الفلاسفة اليونانيون معتلين بأنه "لو وجد مثل هذا المعيار لما استطعنا أن نتصور إمكان وقوع الناس في الخطأ، وإمكان اختلاف الآراء حول الموضوع الواحد" (25).

هذه الحرية التي منحت للغة هيأتها لإنجاز أدوار أشهرها الإبانة والإفهام كما فتحت المجال بذات القدر للتمويه، وهو الوجه الآخر للغة الذي يُلبس على المخاطبين ويتسلط عليهم، وهذا "الالتباس ليس نقصاً في اللغة الطبيعية بل هو حرية فيها يكسبها الطواعية الكافية لجعلها تستجيب لأغراض التبليغ التي لا تحصى" (26)، ويدخل منها التعاطي بكلام معسول أو تسميم أجواء المناظرات تمهيدا للّى العقول وكسب الوقت والغلبة في الحوار وحيازة الحجة غير المستحقة، "واللغة ليست بدعا في ازدواج الوظائف لأنها كالمشي أو الجري نسعى بهما لقضاء الحوائج أو نهرب بهما عند الخطر الداهم" (27).

إن انعتاق اللغة من قبضة المنطق أمكنها من التلاعب وأن تكون عائمة إلى حد ما، "ولا توجد نظرية منهجية تعنى بالبنى والعمليات التي ينطوي عليها مفهوم التلاعب" (28) وإنما تعود اللغة من مجرد أداة سلبية إلى كائن ينبض بالحركة محاكيا روح الإنسان بما فيها من خير وشر مقاومة الخضوع لأي نظام قاهر أو منطق قسري.

إذا برع الإنسان في استعمال اللغة بأسلوب مناوئ انصاعت له فيصنع براءتها ويقوم العلاقات من خلالها ويبني بها جسور التواصل الإنساني العفوي، وفي استطاعته أن يحولها إلى أداة للكيد والإغاضة (29)، وقد ينقلب العبث باللغة على المتكلم نفسه فيُخدع قبل غيره (30) كالنائحة الأجيرة التي قد تتأثر فيصدق بكاؤها أو كمن يؤدي دور شخصية مسرحية فيتقن أداءها حد المماهة فيندمج التموية في التبليغ ثم يطغى أحدهما أو يتصافران.

وقد تفشل مرامي المتكلم ولا تكتمل دائرة حيلته ويرتدّ التمويه عليه فيقع في الشراك التي نصبها لغيره، وقد يشاركه المتلقي في هذا المأزق فيتية معه وسط لجة لا قرار يلوح منها ويتحولان إلى مشهد للمراقب الخارج عن هذا السياق برتمته و"يكون المراقب أقر على الإطار الكامل للغة أما لماذا لا يحصل المشترك والصانع للفكر نفسه على ذلك الإطار فإن تمويه اللغة قد يكون السبب أو كما يقول المثل العربي: القرب حجاب"⁽³¹⁾.

وقد لحظ ابن فارس إحدى خصائص العرب في تواصلهم مع نواتهم والأخرين وهو تطور في التمويه، إذ قال: "من سنن العرب التوهم والإبهام وهو أن يتوهم أحدهم شيئاً ثم يجعل ذلك كالحق"⁽³²⁾، وما يقارب هذه اللمحة ما يصطلح عليه في الأدب العربي اسم (التشكك)، وهو كما يصفه ابن رشيق القيرواني "من ملح الشعر وطرف الكلام، وله في النفس حلاوة وحسن موقع، بخلاف ما للغو والإغريق"⁽³³⁾ كما في قول زهير بن أبي سلمى:

وما أدري وسوف إخال أدري أقوم آل حصن أم نساء⁽³⁴⁾

فقد تظاهر بجهله ما يكونون، أرجال أم نساء، "وهذا ألمح من أن يقول: هم نساء، وأقرب إلى التصديق"⁽³⁵⁾، فوجد الدواء في الداء، وهو أن يتردد الكلام بين معنيين أحدهما هو المراد والآخر تصوير يمهد له في استهلال يشم منه التمويه كي يمهد للرسالة والغرض من التواصل، ويتدرج به من الحيرة التي لا تلبث أن تغدو يقينا مستحكما، وفيه خفة على نفس المخاطب في تجزيء الإفهام وترسيخ الإقناع، وأسلس من مباحثته بالمعنى دفعة واحدة.

ونجد قسطا من ذلك في الإعلام الحربي كما أوهم هتلر نفسه قبل جيشه وأقنعهم بعد اقتناعه بغزو بقاع من العالم، ولا عجب في ذلك إن علمنا أنه "لم يلق الكذب بكله على بلد بأكمله أبدا كما ألقاه على ألمانيا زمن الدكتاتورية الهتليرية"⁽³⁶⁾، فوقع في شرك من صنع يده نتيجة "اتباع مسار تصادفي وعشوائي في التفكير فيكون صاحبه أول من يقع في جبه"⁽³⁷⁾، ويمكن تسمية هذا النوع من تمويه الذات بالتمويه المركب، وهو بأن مغالطة المرء نفسه من دون أن ينويها أو يشعر بها حتى، وهو ما يتوفر عليه الدماغ البشري المكون من غرف "وفي كل غرفة ينشأ منطق واقعي - ومن ثم لغوي - مختلف عن منطق الغرفة الأخرى"⁽³⁸⁾، وتنتج عن ذلك قناعات انفصامية كاعتناق مبدأ ونقيضه وسرعان ما يكشف عند أول طارئ في دائرة الحدث نحو أن يُسأل بائع السكاثر عن التدخين فسوف يبدي رأيه بضرره ولكن حين يُسأل بعد برهة من الزمن عن بيعها فسيبدي نقيض رأيه السابق ولم يعارض هذا الصنيع⁽³⁹⁾.

المبحث الثاني التمويه اللغوي بين الانكشاف والاحتجاب المطلب الأول: التمويه المنكشف

أولاً: مفهوم انكشاف التمويه

وأعني به الكلام الذي يُصاغ بأسلوب تمويهي لكن الغاية من ورائه انكشاف الحقيقة المطوية تحته ويتخذ منه صاحبه جسراً لتحفيز فعل التواصل عند مخاطب، ويجعله وسيلة جذب بالباسه أحد القوالب التي توفرها فنون الأدب وأنوعه.

ويمكن تبسيط التمويه المنكشف بكونه خطاب غير مباشر لا يقصد منه التمويه لذاته ولكنه يوظف لإفهام معانٍ أكثر أهمية منه، ولا يصدر عن الكذب في معناه المذموم ويرتبط بالبيان الذي حباه الله تعالى الإنسان فقال في كتابه العزيز: ﴿الرَّحْمَنُ ﴿۱﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿۲﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿۳﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿۴﴾ الرحمن-1-3.

والبيان قد يتحقق في التخاطبات العادية بين الناس، وهو من شروط النص الإبداعي الذي يتسرب إليه التمويه لينكشف تدريجياً، فالمبدع لا يكون منكشفاً بوضوح مع متلقيه بل في حالة (تهويم) لا غنى للخيال الخصب عنه، ويتأرجح بين الصحو والإغفاء للظفر بالقدحة الفنية والتخليق إلى معانٍ سامية وابتهاج مرجو.

إن البليغ صادق مع نفسه حتى إن لم يتطابق كلامه مع أحواله الظاهرة، فليست مهمته أن ينقل ما فكر فيه أو شاهده حرفياً بل كما أحسّه، وهو ما يصطلح عليه نقدياً بالصدق الشعوري الذي يوصف به الأدب الرفيع والفن الراقي بصرف النظر عن تطابقه للواقع أو لا (40).

قد يبدو بين الانكشاف والتمويه من التناقض كما بين الوضوح والخفاء ولكن علماء البلاغة اصطالحوا على هذا النوع من إخفاء المعنى بالتورية ويسمى إبهاماً وتخبيلاً ومورّياً، وتجتمع هذه المصطلحات في تعريف المعنى بالتشديد- أو تقاربه فـ "هو قول يستخرج عند كلمة فأكثر بطريق الرمز والإيماء بحيث يتقبله الذوق السليم ويكون له في نفسه معنى وراء المعنى المقصود فيه للتعمية" (41)؛ فباطنه مخالف لظاهره (42)، وفرقه عن التمويه اللغوي المنكشف أن هذا الأخير لا يُخفي ظاهره باطنه ولا يُفصح عن مضمونه تماماً، إنما يوازن بين الأمرين بإظهار قسط من متعلقاته وإضمار الباقي.

ومن هذا النوع مسلك لطيف هو فن التعريض وهو خلاف التصريح في القول ويراد به غير مقتضى الظاهر من الكلام، وأطلق عليه كذلك (التوهيم)؛ لأن النص يوهم السامع بما لا أساس لوجوده أو زيادة عليه أو نقصان، وهو الأمر الذي يدفعه إلى البحث عن الحقيقة. وقد يشترك معنيان للفظ واحد مع إرادتهما معا من دون تقديم أحدهما على الآخر نحو ما استشهد به العلوي في هجاء رجل لآخر بسبب انتقاله من المذهب الحنبلي إلى الشافعي:

وما اخترت رأي الشافعي تدينا ولكنما تهوى الذي هو حاصل
وعما قليل أنت لا شك صائر إلى مالك فافطن لما أنا قائل (43)

ف (مالك) في البيت الثاني يصلح أن يكون مالك بن أنس الفقيه وأن يكون خازن النار، وهذه من لطائف المغالطات(44).

ولنا أن نتوقف قليلا بشأن حديث النبي صلى الله عليه وسلم: "إن من البيان لسحرا"(45)، فقد ذكر أبو هلال العسكري أن رجلا تساءل فقال: "أذم البيان أم مدحه فما أبان أحد بشيء فال ذمه لأن السحر تمويه فقال إن من البيان ما يمويه الباطل حتى يشبهه بالحق وقال غيره الصحيح أنه مدحه وتسميته إياه سحرا إنما هو على جهة التعجب منه"(46)، ومهما بلغ فهمنا لهذا النص الشريف فلا نقطع بالمراد أهو الذم أم المدح فاحتمال إرادتهما قائم على سبيل الاجتماع والإفراد، أو إنه وصف بعض البيان بالسحر مجازا لما للسحر من إدهاش وتمويه أو توسعا لمنح الاختيار الملائم في أوانه ومقتضيات أحواله، وقد يكون سبب قرن البيان بالسحر "أن البليغ يبلغ ببلاغته ما لا يبلغ الساحر بلطافة حيلته"(47)، وهذا النص الفريد الواصف للجانب الأقل اهتماما من اللغة من أوائل النصوص النقدية في التنبيه إلى أحد مكامن الإتقان الذي يمتاز به البيان الإنساني، ونقول الإنساني لأن البيان ليس حكرا على لغة دون لغة ولا قوم دون آخرين.

ومما يُثبت اعتماد هذا التوجه في الاستعمال اللغوي وأنه أقرب إلى المدح منه إلى الذم ما قصّه الجاحظ في قوله: "أحسن رجل في طلب حاجته تأتي لها بكلام وجيز ومنطق حسن أمام عمر بن عبد العزيز فقال هذا والله السحر الحلال"(48)، ففي تقييده بصفة الحلال تشبيه الكلام البليغ بالسحر وما ينتج عنه من تمويه منكشف، ويمكن الاستدلال من تعدد التصورات إزاء هذا النمط من البيان بأن اللغة ليست صورة مستنسخة من الفكر وإلا لكانت واضحة ولا نعدم مجال التوهم(49).

من التوهم شُبْهة اللحن كما في قوله صلى الله عليه وسلم حين ذكّر العدد مع تذكير المعدود: "ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله تعالى من هذه الأيام العشر"(50)، فعند قطع النظر عن دقائق المعنى الذي أراد صاحب النص الشريف صلى الله عليه وسلم إيصاله يكون الصواب (الأيام العشرة) وليس (العشر)، وقد بدد ابن أبي الإصبع العدواني هذا الإشكال في التوهم في قوله "لما كان العمل في العشر لا يخص الأيام دون الليالي، والمراد التحضيض على العمل فيها اقتضت البلاغة الإتيان بما يدل عليهما"(51)، فلما كانت الليالي معدودة أيضا صير إلى تغليبها فذكر العدد، ثم أردف وجهها آخر بدا لي أقل إقناعا من سابقه حين قال: "ولما كان لفظ الأيام مؤنثا ساغ أن يبديل منه المؤنث لكون الصناعة لفظية"(52)، فجعل معيار التأنيث على الجمع، في حين أن القياس نحويا على المفرد، ولا ضير في ذلك إذا علمنا أن الدراسة الوصفية العلمية للغة لا تقدّم المشهور لشهرته ولا ضير إذن أن يربط بين القاعدة وخوارقها وإقامة الدليل اعتمادا على مدى تقبل التمويه وانكشاف الهدف منه بالنظر الحاذق والرؤية الفاحصة.

ومن طريف ما يذكر في التمويه المنكشف أن امرأة دخلت على الخليفة العباسي هارون الرشيد وكان لها عليه غضب وعنده جماعة فقالت: "يا أمير المؤمنين أقرّ الله عينك وفرّحك بما أتاك وأتمّ سعدك لقد حكّت فقسطت، ... فقال: أما قولها أقرّ الله عينك، أي أسكنها عن الحركة وإذا سكنت عن الحركة عميت، وأما قولها: وفرّحك بما أتاك فأخذته من قوله

تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾^{الأنعام44}، وأما قولها: وأتمَّ الله سعدك، فأخذته من قول الشاعر:

إذا تم أمر بدا نقصه ترقب زوالا إذا قيل تم (53)

وأما قولها: لقد حكمت فقسطت فأخذته من قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْفَاسِقُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾^{الجن15} (54)، فخطاب المرأة هذا وإن نوت حجه لكنها لم تعبأ بانكشافه فلا بد أنها قدّرت لمخاطبها ذكاهه وكشفه لبواطن كلامها وغائر أسلوبها.

ثانياً: النادرة واللغز جزء من الترمويه المنكشف مدخل

تحرص الدراسة اللسانية على تقصي أي نشاط يستدعي تصريحا لفظيا أو تأملا ذهنيا، كما تبحث في ميادين خارجة عن اللغة بمعناها البنيوي الصرف موصلة بين علم اللغة والعلوم الأخرى ولاسيما النقد والأسلوب وكل ما يمتّ بأدنى اشتراك مع التواصل الإنساني سلوكا أم خيالاً أم رمزا.

من ذلك ما تدلّ عليه النادرة واللغز من الترمويه المنكشف الذي يعدّ من صميم وظائفها الخطابية من تلميح وتأويل، كما أن مجال استعمالها يحمل البعد التواصلية بين أفراد المجتمع؛ وسأورد هنا بعضاً مما لا تكون مخلة.

1- النادرة والترمويه المنكشف

الأصل اللغوي للنادرة من "ندر الشيء سقط وشذ" (55)، وسميت هكذا لندرته، وتلامس دلالتها الترمويه المنكشف لاقتصارها معنى (الطرفة) وليست الحكاية والقصة التراثية، وتطلق على مجمل الكلام الموجز اللطيف الذي لا يقال إلا باستيفاء الجو المثالي لنجاحها واستحضار البيئة الملائمة من غير استكراه أي مع المداراة الفائقة التي تتحقق بحساب اللمحة لاستجلاب الملمحة، وتختص بشكلية تخصها مما لا يجسد اللغة الطبيعية بأحد وظائف.

لكن ما نعرضه الآن منحصر بالمستلح الطريف من العبارات المكثفة التي تستلزم مراعاة طائفة من عناصر سياقية تحيط بها كي تفي بالغرض الذي أطلقت من أجله، وهي من البنى الخطابية التي تنطوي على ترمويه لا يُراد به ستر حقيقة ولا مخاتلة المتلقي بقدر ما يُلتبس منها الإمتاع والفكاهة ولا يُلتفت إلى ما قد تحدثه من لحن نحوي ظاهر أو اعوجاج دلالي مقصود.

تستحوذ النادرة على خصوصية لسانية تكمن في التواصل اللغوي الترموي، وتتخذ من اصطناع الحقائق ولّيها أو الكذب المبطن مادة للإضحاك، ويتوقف إحرار المنفعة منها على استشعار المخاطب لها ودقة توصيلها كما إن أي خلل في عناصر بنيتها اللفظية من إطالة أو سرعة أو تكلف سيفضي إلى إخفاق التواصل المثمر ويحيل الخطاب إلى لغو وعي، ولا بد مع ذلك من قصر المتن خشية الملل، وأما البنية الحالية فمثالها اللباقة والبشاشة والتعظيم والوقف المناسب.

أما الأمر الفارق في هذا النوع النثري في التخاطب فضلا عن وظيفته الترفيحية فهو التمويه الذي يتم بصور أهمها (اللحن) بوصفه قناعا آني الحضور منكشف المضمون لدى السامع لكن استبعاد الصواب أمر ليس اعتباطيا ولا عرضيا، فقد وصف أبو حيان التوحيدي الكلام في النادرة وصفا لغويا في قوله: "والصواب فيه يخل بالنادرة، ولا تنكر اللحن والخطأ"⁽⁵⁶⁾، وزاد بعض العلماء على ذلك بأنها "تُحكى على الأصل ولا يغيّر ما فيها من اللحن ومن سخافة اللفظ"⁽⁵⁷⁾؛ فإذا سمّجت فترت فلم يتمّ نيل المبتغى بها، فقد قامت على افتراض التعاون بين المتكلم والمخاطب وتوحيد الهدف خلافا للمناظرات أو المناكفات الكلامية التي تتناقض فيها الأهداف وتتصارع فيها النيات في حلبة من رغبة الظفر وتحقيق الغلبة.

وقد عرض الجاحظ وهو المتضلع بتصوير مجتمعه لصيغ النادرة وبيّن وظيفتها التواصلية بعين الباحث اللساني الحاذق فرصد طباع الأفراد وما يشغلهم من التخاطب العفوي، وقد نبّه إلى ذلك حين قال في مقدمة كتابه البخلاء: "ولك في هذا الكتاب ثلاثة أشياء: تبيّن حجة طريفة، أو تعرّف حيلة لطيفة، أو استفادة نادرة عجيبية، وأنت في ضحك منه إذا شئت، وفي لهو إذا مللت الجد"⁽⁵⁸⁾، ثم حدّر من إضفاء النمط التعليمي المتكلف على هذا اللون من التخاطب وإلا انتفت قيمة النادرة وسمّجت وثقلت، وذلك في قوله: "فياك وأن تستعمل فيها الإعراب وتخير لها لفظا حسنا، أو تجعل لها من فيك مخرجا سريا، فإن ذلك يفسد الإمتاع بها، ويخرجها من صورتها، ومن الذي أريدت له"⁽⁵⁹⁾، وهذا مذهب الجاحظ هو النكوب عن البيان والجنوح نحو حرف اللسان إذا اقتضى السياق الاجتماعي ذلك فمن مكملات النادرة أن تملك أسلوبا ذا أريحية وتحفظ بكفاءة الحيلة التي تترك انكشافا يخرج بسببه الإضحاك، كما يلحظ منها مساحة للتسلية التي يفصل بينها وبين العبث خيط رفيع. ومن نماذجها التخيلية قول الجاحظ عن بخيلة: "ورفت كساءها ولبسته، حتى صارت لا تلبس إلا الرفو، وذهب جميع الكساء"⁽⁶⁰⁾، ولم يفت الجاحظ أن يزيل ما قد يتوهمه القارئ بأنه أورد هذه الناحية من التخاطب لمجرد كونها نوعا من التخفيف من أعباء العيش والذهن فحسب، ولكنه أعمق مما نتوقع إنه يقدر الأمور بقدرها ويقيس المعاني بميزان الاقتصاد اللغوي، ولندعه يشرح وجهة نظره عن النادرة ويختم هذه الفقرة بنفسه في قوله: "وللضحك موضع وله مقدار، وللمزح موضع وله مقدار، متى جازهما أحد وقصر عنهما أحد صار الفاضل خطلا والتقصير نقصا، فالناس لم يعيبيوا الضحك إلا بقدر، ولم يعيبيوا المزح إلا بقدر، ومتى أريد بالمزح النفع وبالضحك الشيء الذي له جعل الضحك صار المزح جدا والضحك وقارا"⁽⁶¹⁾.

2- اللغز والتمويه المنكشف

لا يكتفي المتكلم في معظم العمليات التخاطبية بمجرد إبلاغ المخاطب ما يريد، بل يحرص على انتقاء أفضل التعابير التي تفهمه ما وراء ذلك من مقاصد ومشاعر، وذلك إن كان يتوقع فيه إمكان استيعاب ما أراد، لكنه إن أراد التمويه عليه واختار وسيلة كلامية مثل اللغز سواء على سبيل اللهو أم الجد فإنه يفعل عكس ذلك، فيختار تعابير مراوغة وأساليب مغالطة يخمن كشف المخاطب لها ويفترض انطلاءها عليه، فالظاهر من كلامه مناقض للواقع الذي على المخاطب التوصل إلى فهم المخفي وهو الحل.

لا يخلو اللغز من وضع بصمة خاصة لمنشئه ويبدل فيه جهد بحيث لا يدرك المتلقي حقيقته المدسوسة في ثنايا البنية الخطابية له، فاللغز وما فيه من تلاعب لفظي أقرب إلى التباري بين متكلم مُبهم ومتلق يتوخى فك العقدة واصطياد المعنى الضائع، وسمّاه العلوي الأحجية وعرفه بأنه "ميك بالشيء عن وجهه واشتقاقه من قولهم: لغز إذا كان يلتوي ويشكل على مسالكه"⁽⁶²⁾، ويشي أصل معناه اللغوي بمعناه الاصطلاحي وشيا بيتنا، فأصله حجر اليربوع يحفره إلى أسفل ثم يعدل عن يمينه وشماله فيخفي مكانه⁽⁶³⁾.

يتراوح الإلغاز بوصفه أحد مظاهر التمويه المنكشف بين الظاهر والخفي، فقد عرفه الحموي بـ "أن يأتي المتكلم بعدة ألفاظ مشتركة من غير ذكر الموصوف، ويأتي بعبارات يدل ظاهرها على غيره وباطنها عليه"⁽⁶⁴⁾، ولا يتصور إلا في الألفاظ الملتبسة باشتراكها في معنيين أو أكثر إذ يذكر المُلغز أحد هذه المعاني ويُوهم أنه يريد غيره، نحو قول أبي العلاء المعري في إبرة:

سعت ذات سم في قميصي فغادرت به أثرا والله شاف من السم

كست قيصرا ثوب الجمال وتبعا وكسرى وعادت وهي عارية الجسم⁽⁶⁵⁾

وإنما أدرجت اللغز في التمويه المنكشف لأن المتكلم يعمل على انغلاقه إلا من ثغرة صغيرة والمتلقي يعمل على جعله منكشفاً، فمن شروطه وجود رابط لغوي بين الأول والثاني متضمناً لمحة من الحلّ كي يكتمل التحدي الذي لولاه لم ينشأ هذا النوع من التخاطب، ولا يحتاج إلا إلى قدحة ذهنية تكشف سر الثغرة وتنقض غزل الشفرة، خلافاً للرمز المبني على الانغلاق التام والذي لا يحمل الحلّ في ذاته كما يحمله اللغز⁽⁶⁶⁾.

ومما يقارب الإلغاز ما يُعرف بالملاحن التي أُلّف فيها ابن دريد الأزدي كتاباً بهذا العنوان، أقامه على استخدام ظاهرة الاشتراك اللفظي واعتمد على انزياح اللفظ عن الدلالة المتبادرة عند الناس إلى أخرى لا يعرفونها إلا بعد إعمال العقل ووفرة من البدهاة والفتنة، ولا غنى من الرجوع إلى المعاجم وإلا فسّرت كأنها لغز من الألغاز لاقتضائها الإخفاء والتغطية نحو قول: "والله ما أجلت فلانا قط ولا أكرمته، فما أجلته: من الجلة، أي لم أعطه الجلة، وما أكرمته أي: لم أعطه الكرم، وتقول: ما أنعم عليّ فلان، أي: ما أعطاني نعماً"⁽⁶⁷⁾، وغير ذلك.

المطلب الثاني: التمويه المحتجب ومظاهره

الفرع الأول: مدخل في التمويه المحتجب

التمويه المحتجب في التواصل الإنساني هو التمويه المحض المقصود لذاته حين يُمعن المتكلم في صنعة الاحتيال ويسخر كلامه في تقويض كل سُبُل الصواب والإبانة وكسر أصول التخاطب وتمرير المعاني المغلوطة بانتهاز عناصر مثل المفاجأة والسرعة وتعمد تضييع الكلمات الصادقة بين ركام الكلمات الكاذبة.

وهذا النوع سائر في التواصل الإنساني وهو نقيض التمويه المنكشف؛ لأنه مُوغل في الخفاء ومقرون بالتخطيط المسبق والإصرار على طمس الحقائق وإخراج المزيف منها، وهو والأوفر نصيبا عموما، ويكثر انتشاره في عند رجال السياسة التي تعد بيئة خصبة للتلاعب بالكلمات وجر المحادثات إلى موضوعات جانبية والمماطلة والتحريض وتضليل الأفكار وتسليط اللغة على الوعي "وعادة ما تكون هذه السيطرة رغما عن إرادتهم أو ضد مصلحتهم" (68)، ويحصل ذلك من غير أن يلجأ المموّه - بالكسر - إلى الكذب بمعناه الصريح، وإنما يبقى في دائرة التواصل السليم ظاهريا السقيم باطنيا والمخلّ في قواعده الناصعة.

وغالبا ما يُخفي الأسلوب المنمق حقائق مموّهة لا تظهر نتائجها إلا بالإغارة على أفكار المتكلم واستباق عباراته التي يجهد في إبعادها عن الاستقامة لكنه عاجز عن إيقاف عواقب تمويهه التي تشق طريقها لتظهر حصائلها وتهرب منه آلياته التمويهية بعيدا؛ إذ إن "التلاعب لا يستند إلى نوايا المتلاعبين ولا إلى الإدراك الذي يظهره المتلقون لهذا التلاعب بل يستند إلى الآثار أو العواقب الاجتماعية لهذا التلاعب" (69)، أو قد يشعر المخاطب أنه تحت تأثير تمويه المتكلم ومع ذلك لا يحمله ذلك على التخلص منه إما لرضاه وهو نادر أو لعدم إيجاده بديلا يعادل هذا الرضى وذلك أشبه بـ "حكمنّا على العصا المستقيمة حين نولجها في الماء بأنها عصا معوجة ما دامت ظهرت وبدت لنا كذلك" (70)، مع تيقننا من أنها خلاف ما وصفناها به.

ودفعا لتشتيت الفكرة نوجز أهم مظاهر التمويه المحتجب التي يتخذها الإنسان قالبا مقتنعا في تواصله مع غيره.

الفرع الثاني: مظاهر الترمويه المحتجب

على الرغم من أن الترمويه هنا محتجب لكن يُراد لسطحه الظاهري التجمل ببهرجة تغري بموافقة المتكلم والانصهار في عالمه والانزلاق في لَجّته، فيقع السدّج من المخاطبين في مصائد اللغة ومكائدها، وأهم مظاهر هذا الترمويه ما يأتي:

1- الكذب

الكذب واسطة العقد بين معاني الزور والبهتان والافتراء والإفك وغيرها لاشتراكه معها في الصفة والغاية، ففي كل منها كذب وزيادة من وجهة معينة⁽⁷¹⁾. يُدرس الكذب من الواجهة اللسانية بهدف كشف ماهيته وتفحص دائرة تداوله على أساس أنه نص لغوي بامتياز لا كما يُدرس في الأخلاق والأديان، فإن الدافع من دراسته فيهما هو التحذير من ارتكابه وتعريف سبل إزالته أو التقليل منه ولا كما يدرسه علم النفس الذي يكتفي بوصف الإحساس إزاءه وأنماط سلوكه الفكري غير السوي. نسمع في أوساط غير علمية وفي محادثات الحياة العامة أن الكلام فراغ لا إنجاز فيه ولا يمكن الوثوق به بذات الثقة التي يعتمد بها على الفعل المشاهد والأداء العملي الملموس (فليس راء كمن سمعا)، وأن وصف الأحداث باللسان والوعود الكلامية يشوبها عادة النسيان والخلف، ومنهم من لا يزال حتى اليوم يستسيغ مقولة (ليس على الكلام جمر ك) ويتمثل بها، مما يعني أن باب الكذب مشرع والألفاظ السائبة تشجع على القول الجزافي والظن الأثم.

ينفق الكذب والتمويه المحتجب في أمر ويفترقان في آخر، فأما محلّ الاتفاق فأنهما يُنتجان التلبيس والتدليس "فالكذب يعني دائما -ويجب أن لا يعني شيئا آخر- خداع الآخرين عن قصد ووعي ودراية كاملة من طرف الكاذب لمحتوى ما يخفيه عمدا"⁽⁷²⁾، وأما الافتراق فهو أن الكذب صريح في عدم مطابقته للواقع إطلاقا، والتمويه يجري مجرى الكذب إلا أنه قد يطابق الواقع، وهنا تكمن المفارقة فعواقب الترمويه تكون أشد أثرا من عواقب الكذب؛ لأن العبرة ليست في مطابقة الواقع من عدمها بقدر ارتهانها بالمرتسمات العقلية التي تحاك سترا في خلد المستعملين لهذين المعنيين المتقاربين، ونستطيع أن نصف الترمويه هنا بالكذب المزدوج أو المركّب .

من خلال الانسجام مع السياقات الموجّهة لمسار النص اللغوي فالكذب يستجيب للمنطوق أكثر من استجابته للمكتوب، فكما تحكم النص قواعد نحوية لا بد من التنبيه إلى مبادئ التخاطب والتداول التي يذوب فيها الكذب ويتقلب من طابعه المذموم إلى حيزه الممدوح ف "كلما كانت إشارات الكذب واضحة والمبالغة غير منطقية كان الكذب مستملا ... لأن خيوط اللعبة منكشفة"⁽⁷³⁾، وفي هذه الحالة يخرج مضمونه عن الترمويه اللغوي إلا في ظاهره واسمه ويتخذ مكانا ضابايا بين الخداع والوضوح، وهذا النوع من الكذب "على نقيض الكذب المتخفي الذي لا تستبين خيوط الأحبولة فيه إلا بصعوبة"⁽⁷⁴⁾، وهو المقصود هنا.

كل ما يتوافر في الكذب من حيث الطبيعة والبنية يتوافر في اللغة وليس العكس فبينهما عموم وخصوص ولا عبء -من الناحية العلمية- بقول من يرى وجوب إزالته من الدراسة اللسانية ظنا منه أن ذلك تقديس للغة وأنه يكدرها، وقد فند أحد الباحثين هذا التوجه -إن وُجد- فقال في الكذب: إنه "مسألة لغوية بالأساس، وفي غياب اللغة لا كذب ولا صدق؛ إذ الحكم على الكلام بالكذب أو الصدق هو حكم على مؤسسة اللغة في تمثيلها للعالم بالمطابقة أو غير المطابقة"⁽⁷⁵⁾.

ليس من المتيسر الحكم على كلام ما بأنه كذب صراح إلا بعد النظر المتساوي إلى نية المتحدث هل نطق بالكذب رغبة في الخداع أو لا، وإلى الواقع هل اختلف عنه أو لا، وإن اختلف شيء من هذين الاستثناءين أي إن انتفت الرغبة في خداع الآخرين أو اختلف القول عن مطابقة الواقع، فقد أبرز (جاك دريدا) هذه النقطة الحاسمة حين أعلن أن "الكذب على الآخرين يتضمن الرغبة في خداعهم، وذلك حتى إذا كانت أقوالنا حقة، والحال أنه بإمكاننا أن ننطق بأقوال خاطئة دون أن نكون كاذبين، وأن نقول أقوالا حقة الهدف منها خداع الآخرين ونكون آنذاك كاذبين"⁽⁷⁶⁾.

وقد تجلى النظر اللساني لحازم القرطاجني حين حلل أهم تلوينات الكذب وإلى مَ يعود فقال: "وإنما يصير القول الكاذب مقنعا وموهما أنه حق بتمويهات واستدراجات ترجع إلى القول أو المقول له"⁽⁷⁷⁾، فقد أعطى اهتماما ملحوظا بالخطاب والمخاطب وأهمل المتكلم إيماننا منه بأن الكلام يدل على المتكلم ويحمل كل صفاته الشخصية والعاطفية الأمر الذي إن تمرسنا عليه فتح لنا أبوابا من فهم النص أغلقتها الحيلة المفرطة والتوجس الفائض شرط منافاة التعسف وعدم تحميل النص ما لا يحتمل.

ثم وصف دواعي هذا المظهر التمويهي وطبيعة شيوعه في التواصل بين الناس فقال: "وتلك التمويهات والاستدراجات قد توجد في كثير من الناس بالطبع والحنكة الحاصلة باعتياد المخاطبات التي يحتاج فيها إلى تقوية الظنون في شيء ما أنه على غير ما هو عليه بكثرة سماع المخاطبات في ذلك والتدرب في احتذائها"⁽⁷⁸⁾، فعلى أساس ذلك يمكن تحصيل هذه المهارة من الدربة والمراس وتوهيم النفس وإقناعها بالمنتفي أو المشكوك فيه بأنه موجود أو موثوق به، وذلك يتبع الجانب الإرادي فإن حقيقة من لا يفهم هي ليست عدم الفهم بل في عدم إرادة الفه؛ لأن الإنسان قد يكذب على نفسه ويوقعها في ظنون يكرر تقويتها حتى تصبح بالنسبة إليه حقيقة أو شبه الحقيقة.

2- المغالطة اللغوية

ومن نماذجها تلك العبارات التي تحتل معنيين مثل عبارة (خوف الأعداء) فيمكن أن يكون الأعداء هم الخائفون ويمكن أن يكونوا هم المخيفين، وهذه المغالطات ليست صورية وغير متأثرة بالمنطق، وإنما تُعنى بالجدل والحجاج ومبادئ المحادثة⁽⁷⁹⁾.

يعمد المغالط إلى حذف أحد أركان كلامه لإحباك صنعة الترمويه وتعرف في علم المنطق بالمقدمة الصغرى أو الكبرى، وأهم دواعي حذفها الإيجاز للعلم بها كقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾^(الأنبياء: 22)، فالمحذوف المعلوم بالضرورة هو عدم فساد السماوات والأرض والحال شاهدة على ذلك، والداعي الآخر الالتفاف على فهم المخاطب، وذلك "بترك المقدمة التي يعسر إثباتها أو ينازعه الخصم فيها استغفالا للخصم خشية أن يصرح بها فينتبه ذهن خصمه لمتاز عته فيها"⁽⁸⁰⁾ وتقريباً لهذا المفهوم نضرب مثالين من الخطاب اليومي:

المثال الأول: قول أحد الأشخاص لصديقه في محاولة الصلح معه بعد مخاصمة: (إني أدعوك إلى وليمة العشاء غدا) فقد تخطى إحدى المقدمات على أمل نسيان الصديق أصل المغزى، فسواء قبل المخاطب الدعوة أم لا فإن المتكلم افترض التصالح ومرر مبتغاه بالمغالطة والترمويه.

المثال الثاني: أن يسأل المحقق المتهم (بماذا استعنت لمحو أثر الجريمة؟)، "فالسؤال في محله متى اعترف المتهم بجريمته، أما لو أنك ذلك فالسؤال غير مبرر"⁽⁸¹⁾، فقد انتهز المحقق شرودا قد يقع للمتهم من السؤال المبالغت الذي أهمل منه المقدمة الأولى وتخطاها إلى المقدمة الثانية التي يريد الإقرار بها، ومنها "قولنا في صورة فرس في حائط: هذا فرس، وكل فرس صهال، فهذا صهال"⁽⁸²⁾، فقد تغافل عن كونها صورة صماء وأسس المقدمة الثانية على مقدمة نافرة عنها ففسد المعنى وانحرف المفهوم، وغيره كثير منشور في التخاطبات اليومية للناس.

نلمح من ذلك أن أكثر ما تُرصد المغالطة اللغوية في الحوار المشتمل على أسئلة وأجوبة؛ لأن الحجاج التواصلي فيها يكون حتمياً، فيعمد السائل إلى إخفاء ما يقصد التوصل إليه ترميها على المخاطب وإيقاعه له في فخ المغالطة⁽⁸³⁾، وهي من أشهر الترمييات في التواصل الإنساني وأسبقها زمناً فهي منذ الفلسفة اليونانية لدى السفسطائيين⁽⁸⁴⁾ التي "تنحو نحو الجدل، فما يفعله الجدل على الحقيقة تفعله السفسطائية بترمويه ومغالطة"⁽⁸⁵⁾، ومن ميزات الجدل اشتراك متخاطبين فأكثر حاضري الذهن بما يتفاعلون به ومع ذلك يتوصل من خلالها المموهون إلى المراوغة الكلامية والخطابة الفنية والعبارات التي تسلب الأبواب إلا على من يمتلك بُعد نظر وفهم حاضر واستنباط عميق.

3- الغموض

تُستثمر ظاهرة الغموض في مضمون الخطاب على شقين: مقصود لذاته فيحجب الصواب ويكون أقرب إلى الغش والنفاق مع استهانة بالمتلقي، وغير مقصود لذاته عند توظيفه في الأعمال الأدبية والشعر بصفة بارزة؛ لأن الشعر لا يخضع للمواصفات العقلية⁽⁸⁶⁾، والحال نفسه يقال في الإبداع الفني لإضفاء عنصر التشويق والإثارة وجذب الاهتمام حتى يزِيل الإبهام تدريجياً ويظفر بتلذذ المتلقي فإن الوجدان بعد البحث عن ضائع أثنى من ابتذال المعنى ووضوحه.

يتأتى الغموض من مسالك عدة كاستعمال المستغرب أو المهجور من الألفاظ، أو بعثرة كلمات الجملة على سبيل الإغراب إما لإبراز براعة التصرف بها أو تمويه المعاني الأصلية إلى أخرى دخيلة ملتبسة حتى يأخذ التوهان والتشتت من الضحية مأخذهما، والغريب أن نصف الحقيقة أكثر إيقاعاً في الحيرة والشك من انعدامها تماماً، "وفي محور آخر من محاور نسبية الحقيقة نجد التضليل صادراً في كثير من الحالات عن ميوعة الدلالة ... مثل يمين يسار أمام خلف [الظروف المبهمة]⁽⁸⁷⁾ بما يجعل الصورة ضبابية وأحياناً معكوسة تماماً، ويزداد الأمر سوءاً عندما تنتقل هذه المركزية إلى مفاهيم مجردة (حزب يميني) أو (اتجاه يساري)"⁽⁸⁸⁾.

يتأثر الناس حين يقع عليهم التمويه وتنطلي عليهم الخديعة بمحض إرادتهم يقول غوستاف لوبون "إن قوة الكلمات تثير صوراً مستقلة تماماً عن معانيها الحقيقية"⁽⁸⁹⁾، والكلمات الغامضة مؤثرة وساحبة وأحياناً يتوقف عليها تغيير أكبر منها، وتسري في تفكير المتلقي كالنار في الهشيم نحو الكلمات المحاطة بهالات من القداسة أو الجدية أو العظمة كالدين والحكومة الديمقراطية والاشتراكية والحرية وألقاب الشخصيات وأسماء الأحزاب الحاكمة والشركات التجارية الساعية إلى جذب الأرباح من جمهور تخيم عليه السداجة بعد اعتيادها، فالغموض الذي يجلبها يزيد من قوتها الإنجازية، ويزداد التمويه إن ساندته النبوة الصوتية واللغة الجسدية حين "تلفظ بنوع من الخشوع أمام الجماهير حتى تعلو آيات الاحترام على الوجه وتنحني الجباه لها"⁽⁹⁰⁾.

ومعلوم أن البيان غاية الكلام وإصابة الموضوع مبلغ كل متكلم مهما كانت الوسيلة ومنها الغموض لتأدية القصد المنشود "فيدرك باللين ما لا يدرك بالشدّة وبالإخفاء إذا فشل الإظهار، ولما ندر التمويه على الذات في الفعل اللغوي الذي "لا يتم من خلال القول وإنما من خلال الحوار"⁽⁹¹⁾، فقد افتقر التمويه هنا إلى تخاطب مثالي لهذا الموقف وهو الذي يمتلكه فهم مغاير للمعنى المفترض مطابقة فحواه للصدق، وليس ذلك مستغرباً في الوصف الواقعي للغة "إذ إن سوء الفهم ممكن بين البشر ويمكن خداعهم وتضليلهم بشكل منظم"⁽⁹²⁾، وفي هذه المواطن يكون الحكم على نجاح الخطاب أو فشله مرهوناً باكتمال دائرة التمويه وسلامتها، وإن تم كشفه وفكّ عقده فيمكن الحكم على التواصل بالانقطاع.

4- الاستمالة

يُرجى من التمويه بالاستمالة جرّ المخاطب إلى فهم معيّن كاشغاله بما لا يدخل في صلب الحديث مع الحرص على إبقائه في مرمى التضليل كي لا ينكشف مثل السجع الذي يُفتر اليقظة ويُبدد التركيز عن أصل الموضوع، ومن شواهد احتكام أبي الأسود الدؤلي وزوجه بشأن حضانة ابنهما بعد الطلاق فقال: "أصلحك الله، هذا ابني حملته قبل أن تحمله، ووضعتة قبل أن تضعه، وأنا أقوم عليه في أدبه، وأنظر في أوده، وأمنحه علمي، وألهمه حلمي، حتى يكمل عقله، ويستحكم فتله، فقالت المرأة: صدق أصلحك الله، حمله خفًا، وحملته ثقلاً، ووضعه شهوة، ووضعته كرهاً"⁽⁹³⁾، فكان حكم القاضي: "اردد على المرأة ولدها فهي أحق به منك، ودعني من سجعك"⁽⁹⁴⁾، وسمّى الدكتور محمد العمري أمثال ذلك بالاستهواء والاستمالة بالأسجاع⁽⁹⁵⁾.

ومن الاستمالات تخير أساليب تُغلق على المتلقي جميع سبل الرد عدا سبيلا واحدا مقصودا، أو تحمله بتلطف على جواب بعينه نحو سؤال المذيع ضيفه عن الثورة ضد الحكم ويتخذ مسلكين إما التأييد أو الرفض، فالصياغة المنزعة للتأييد نحو: هل أنتم مؤمنون بالثورة المنصفة والنظيفة؟ ولجلب الرفض يقول: هل أنتم مقتنعون تماما بما يدعى ثورة؟ فالسؤال غير محايد والتمويه واقع في الحالين وفيه استمالة وهيمنة على الطرف الآخر من دون وعي منه ولا استعداد.

5- الماهية المادية

لا يقتصر التمويه في معناه العام على الدلالة المحصلة من اللغة وإنما يستوعب الدلالة المستوحاة من الواقع المشاهد كذلك، ولعل المشاهد من أكثر وسائط التواصل الإنساني وضوحا من الناحية العملية وإن لم يكن أشدها تمويها، فالتمويه المادي ممكن إخضاعه للتجربة والاختبار حتى يفتضح زيفه.

وقد ذكر عبد القاهر الجرجاني هذا الملمح في قوله: "تفعل المشاهدة من التحريك للنفس والذي يجب بها من تمكن المعنى في القلب إذا كانت مستفادة من العيان ومتصرفه حيث تتصرف العينان"⁽⁹⁶⁾.

ومما يمّوه بهذه الكيفية الإتيان بماهيات حاملة لرموز مجهل مستقبل الرسالة مغزاها ويخدع بظاها كالذي "بعث إلى قومه بصرّة شوك وصرّة رمل وحنظلة يريد: جاءكم بنو حنظلة في عدد كثير كثره الرمل والشوك"⁽⁹⁷⁾، وتشيع هذه الممارسة بكثرة في الحروب لإرسال انطباعات إلى العدو أساسها التزييق أو موجهة إلى الرأي العام كالتعريف بعدد القتلى وحجم الخسائر بشكل مغلوط ومدلس "وذلك عن طريق الكناية والتعبيرات اللطيفة والغامضة والضمنية"⁽⁹⁸⁾؛ لتجد هذه الانطباعات طريقها إلى وعي المستهدفين وتندمج في ضمن كياناتهم لتصبح جزءا من شخصياتهم ونسيج وجودهم، ففي الاستعانة بالتعبير المشاهد الشبيه بالكناية العملية ما يفوق التعبير القولية، ويتم في المجال العسكري اغتنام أصغر فرصة وبأسرع وقت، فالأفعال الملموسة إن أجدى في هذه الحالة من الأقوال التي تتطلب وقتا للتأويل خلافا للمشاهدة الحسية؛ لذلك تمّ تعريف مصطلح الخداع العسكري بأنه

"الإجراءات المصممة لتضليل العدو بالمناورة أو التشويش أو تمويه الحوادث لقيامه بعمل يضر مصالحه"⁽⁹⁹⁾، فقد حوى هذا التعريف الأصل الذي يجمع ركني العملية المادية الخارجة عن إطار اللغة اللسانية وهما وسيلة التمويه الحسي وغاية الإضرار بالآخر.

6- التنعيم الصوتي:

تتعدد أشكال التواصل الإنساني كما في التنعيم الصوتي الذي يفترق عن البنى اللفظية بأنه أصوات غير مقطعية لا تقل كفاءة إبلاغية عن الكلام اللفظي، ولها قدرة على التمويه قد تنفرد أو تكون مزيجا من الصوت والإشارة أو الصوت والحال الناطقة من غير لفظ، وقد ينشأ التمويه من تعارض وسائل البيان كما في اجتماع التنعيم الصوتي مع الخط الكتابي ودلالات التشكيل الإعرابي.

ويستعان على معرفته من خلال أساليب لغوية كالنداء والإخبار والنفي والاستفهام والتعجب والترجي والتمني، فإن لم تسلك الأساليب نمطا صوتيا مخصوصا مؤهت على السامع فيستعين المتكلم بالعلامات التطريزية كالترقيم والكلمات المصاحبة الموضحة لما معها لأجل توضيح القصد، فأسلوب التعجب على سبيل المثال "مهما قيل عن خواصه التركيبية والإعرابية فلا مناص من العودة إلى خواصه الصوتية وعلى قمتها التنعيم واللون"⁽¹⁰⁰⁾، فهذا التفصيل للصوت يشي بوجود تعارض محرّ بينهما، وأرى أن ردّ أبي الأسود الدؤلي بكلمة (نجومها) لابنته -حين سألته: ما أجمل السماء- كان نوعا من التعارض المموّه ولكنه قدّم الإعراب على التنعيم.

ولو نطقت جملة (ما أحسن زيدا) بنغمة هابطة تدل على التقريرية والإخبار بالنفي فقد حصل التعارض بين التنعيم والإعراب، فأبي الداليتين تفهم منه؟! فإن لم يكن كذلك فإن الأولوية للأخذ بدلالة التنعيم دون غيرها؛ لأنه الأصل والأسرع إلى الفهم فهو أصدق من الإعراب والكتابة وأقصد منهما وأكثرهما تلقائية وأقرب إلى فطرة المخاطب، وأيا كان الأرجح بالأخذ فبعد هذا التردد بين التنعيم والإعراب يكون التمويه متحققا لا محالة. ومن نماذج التمويهات التي يكمل التنعيم دلالاتها كلمات الطبيب للمريض تطمينا له مثل (لا تقلق الأمر هين) بنبرة الواثق من نجاح العلاج أو الجراحة وأي تردد في الصوت سيحمل المريض على فهم مناقض للرسالة المراد إيصالها وأن قصده التخفيف على المريض أو أن كلامه كان من قبيل الواجب المهني لا غير⁽¹⁰¹⁾، وبذلك يموّه على المتلقي ومن ثم يحدث ردة فعل مضطربة أو غير متوقعة، وإمكان حدوث هذا الموقف شائع في مثل هذا التواصل الإنساني.

ومن ذلك طريقة النطق الصوتية لكلمة (لا) في العربية أو في أي لغة أخرى فإنها "إذا نطقت بنغمة هابطة تكون جملة تقريرية بمعنى لا أوافق، وإذا نطقت بنغمة (صاعدة هابطة) تدل على دهشة واستنكار"⁽¹⁰²⁾، فإذا تناقضت إحدى هاتين النغمتين مع مراد المتكلم أو ناقت الواقع بقصد تأكيد الالتباس كان ذلك تمويهها لأجل التمويه.

إن تعدُّ الدلالات واحتمال إحداها يلقي على المخاطب مسؤولية تحديد مراد المتكلم، وإن أفلح في ذلك فقد أصاب الموضوع وأسهم في اكتمال دائرة التواصل؛ وتحول الترمويه من محتجب إلى منكشف.

7- المقام

يطلق المقام على مجمل الظروف المحيطة بالنص التي يتوقف توجيه دلالاته عليها وهو البيئة التي لولاها لم يكن للنص قيمة تداولية وكان ألفاظا جوفاء عائمة في فراغ لا ضابط لها ولا مسار وأقرب إلى اللغو، اللهم إلا من معاني كلماته المعجمية الخارجة عن الاستعمال الذي لا حياة للغة من دونه، وكما إن للمقام هذا الوقع في إتمام دلالة النص وإزالة اضطرابه فله كذلك ذات الأثر لكن في الاتجاه المضاد لذلك فيعضد الترمويه ويحكم أركانه ويشكل بنيته اللفظية والدلالية، وقد أشار الدكتور تمام حسان إلى تلك الخاصية للمقام فقال: "وإذا كان المقام ضروريا للفهم فإنه يكون أحيانا ضروريا لعدم تحديد فهم بعينه، إذ يكون اللبس مقصودا لذاته" (103)، والتمويه من مصاديق اللبس بلا ريب. فقد تركنا الشاعر معلقين في التباس يدعو إلى التدبر ونشوة الظفر بالقصد حين تمنى استواء عيني أعور خاط له قباء، لكنه لم يصرح بماهية هذا الاستواء هل في براء العين العوراء أو عمى الاثنتين فقال:

خاط لي عمرو قباء
ليت عينيه سواء
فأسأل الناس جميعا
أمديح أم هجاء (104)

فلم يكد يترجح أحد المعنيين على الآخر (105)، فقد أبدت مناسبة مهنة الخياطة للعينين المعنى الدقيق للنص وأضاءت قصد الشاعر وهو أن يستر المعنى الذي أراده وبقي المعنى في قلبه، "فلا سبيل إلى معرفة التمني بلفظ (ليت) أكان للخياط أم عليه إلا بمعرفة ما إذا كان الشاعر قد رضي عن قبائه أو سخط عليه... فأصبحت التعمية جزءا من المعنى وأصبح اللبس الذي فيها مقصودا لا يراد دفعه" (106).

وأهم عناصر المقام هو المخاطب فمراعاة طبيعة استعداده لتلقي معاني النص قد توجه الدلالة في اتجاه مخالف لأصل الخطاب فـ "يكون سبب التوهم كون المخاطب إنما يفهم من اللفظ غير حقيقته لعرف خاص به أو سهو منه أو جهل إبهام المخاطب من غير حاجة إليه وذلك تغرير، وربما أوقع السامع في الخبر الكاذب" (107).

وقد يختار المتكلم الإيهام إذا أراد إصابة الموضوع الأنسب على طريقة: "وداوني بالتي كانت هي الداء" (108) وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا خِفتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليمِّ﴾ (القصص، 7)، وذلك بأن يتوقع حال المخاطب ويعمل على إشعاره بأهمية الأمر وخطورته من أقرب طريق وأسرع، وذلك هو البيان وتلك هي البلاغة.

ومن أمثلة الترمويه التي تعرف من المقام أن أحد الولاة قال لرجل: بلغني أنك دعوت عليّ فقلت: اللهم سؤد وجهه واقطع رأسه واسقني من دمه، قال: نعم قلت ذلك ونحن جلوس بكرمة حصرم، فاستحسن إبهامه وعفا عنه لسداد جوابه وحسن تخلصه (109).

التمويه اللغوي في التواصل الإنساني دراسة لسانية

ويرشدنا المقام وحده أحيانا إلى التمويه في اللغة وذلك بتقييده في فئات محصورة يعمدون "إلى إبداع لغة خاصة بهم حيث يستفيدون من معرفتهم لبعض القوانين اللغوية فلا يستطيع أن يتحدث أحد سواهم" (110).

والمقام في كثير من الأحيان لا يحتاج إلى توضيح بل تنبئ عنه مجمل عناصر البيئة التي ينشأ فيها النص، "وهذه الآلية منتشرة بين الجماعات الخاصة مثل العسكريين ومنسوبي الطيران واللصوص" (111).

ولا ينحصر وجود التمويه اللغوي في هذه المقامات فحسب، ولكن من يرتقب الخطاب بعناصره التفصيلية لا يعدم فيه خرقا أو تمردا أو انعلاقا، وليس من الممكن تحجيمه أو تعطيل وظيفته، فهو مشارك طبيعي في التواصل اللغوي الإنساني إرسالا واستقبالا، سلبا وإيجابا.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

الخاتمة

بعد هذه السياحة الممتعة لي لا بد من ختمه ببعض ما أثمر من نتائج بإيجاز كما في النقاط الآتية:

1- يكشف الترميم اللغوي حقيقة اللغة من وجه آخر يخفي أكثر مما يظهر، وهو على رأس شروطها بديل مرادفات التي يجدها القارئ منثورة في ثنايا البحث كلا بحسب سياقه، ومنها الكذب والمغالطة والإيهام والخداع والمراوغة والمواربة والمخالطة وغيرها.

2- زيادة الخبرة بأن للتواصل الإنساني من الكفايات المتشعبة ما يتجاوز التصنيفات الأولية، وإن الترميم اللغوي أحد هذه الإمكانيات حين ينفرع إلى منكشف ومحتجب ولا يعدمان استمدادا من واقع المحادثات الحجاجية والعبارات التواصلية.

3- الإفادة من تناول أجناس أدبية من القوالب الخطابية سريعة الانقضاء كالنادرة واللغز ذاتي الترميم المنكشف الذي يُعين صاحبه على إحداث معبر يمرر منه الإضحاك في النادرة والتحدي في اللغز، وتجيبهما لخدمة البحوث اللسانية الأخذة بالتوسع على المستوى الأكاديمي العالمي.

4- يمكن استثمار الترميم اللغوي في اللسانيات التطبيقية أكثر من النظرية أو المستمدة من المنطق الأرسطي الشكلي، ويتيح فرصة للراغبين في تناوله في المجالات التي تميل طبيعتها إلى السرية، وفي العصر الحديث تعدّ شبكة (الانترنت) ومواقع التواصل الاجتماعي مرتعا متيسرا لاستعماله السليبي ثم الإيجابي، كما يُرتكز عليه في العروض المسرحية والتمثيل السينمائي، والسميائيات ولغتي الجسد والحيوان وعلوم الدلائل والقيافة والسياسة والقانون والعسكرية والنفس والاجتماع والجمال والتربية.

5- أهمية التوسع في دراسة اللغة من أبوابها الإنسانية كافة لمواكبة العلوم التي تجمعها أفكار موحدة، وذلك قد يفوق دراسة لغة ذاتها، ولاسيما إن الترميم قريب من المحاكاة التي هي أصل الفنون وأسبق الآداب.

6- تقتضي الموضوعية والمطابقة الوصفية للوقائع المشاهدة عدم ترك بعض المفاصل المعرفية العامة من غير تحسسها وتوظيفها والتأكد من انتسابها لأحد فروع الدراسة اللغوية.

7- ترغيب الباحثين في التزام الموضوعات التي تأخذ من كل علم بطرف بتجريبها ومن ثم دمجها في حقل اللسانيات أملا في إعادة إنتاجها وتجديد فاعليتها من زوايا مستحدثة مع الحذر من اعتساف الأفكار وإقام ما ليس منها، فإن جودة الدراسة وجودتها تثري الخبرة الإنسانية عموما واللغوية خصوصا.

8- ليست اللسانيات من العلوم التي يتوقف البحث فيها عند حد، فوظائفها الدراسية لا تكاد تنضب عسى ذلك أن يجري الدارسين على التحلي بروح المجازفة العلمية والفضول المعرفي المشروع، وخلق محطات للابتكار والتفرد فضلا عن مغادرة الرتابة.

وفي ختام البحث أسأل المولى العلي القدير أن يوفقنا إلى طاعته وإلى مزيد من التفقه في اللسان العربي، وأن يعلمنا ما ينفعنا كما علم آدم الأسماء كلها، فالحمد لله نعم المجيب وهو الحق المبين.

والحمد لله رب العالمين

الهوامش

- (1) ديوان الشافعي 105.
- (2) الصوتي والصرفي والنحوي والدلالي المعجمي والأسلوبي.
- (3) ينظر: عنف اللغة لجان جاك لـ (وسركل) 42.
- (4) مجمع الأمثال للميداني 306/1.
- (5) التوقيف على مهمات التعاريف لعبد الرؤوف بن تاج العارفين (بتصرف طفيف) 109.
- (6) مجمل اللغة لابن فارس لأحمد بن فارس 820/1.
- (7) ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة للدكتور أحمد مختار عمر 2141/3.
- (8) الفروق اللغوي لأبي هلال العسكري 257.
- (9) لسان العرب لابن منظور مادة (م و هـ) 4303/6.
- (10) شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم لنشوان الحميري 6414/9.
- (11) ينظر: المعجم المفصل في علوم اللغة (الألسنيات) 189 ، 92 وموسوعة العلوم العربية على شبكة المعلومات العالمية (الإنترنت) بعنوان (علم التعمية)، وكتاب علم التعمية واستخراج المعنى عند العرب للدكتور محمد مرياتي ويحيى مير علم ومحمد حسان الطيان.
- (12) ينظر: مبادئ الاستراتيجية العسكرية لـ (جي-جي فيبيجز) ترجمة علي رمضان فاضل 137، وينظر: معجم المصطلحات العسكرية (تمويه) 139.
- (13) الكليات لأبي البقاء الكفوي (تمويه) 314.
- (14) منهاج البلغاء وسراج الأدباء 19.
- (15) كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم للتهانوي (المموه) 1645.
- (16) يورجين هابرماس الأخلاق والتواصل لأبي النور حمدي أبي النور حسن 147.
- (17) الحجاج لكريستيان بلانتان 58.
- (18) علم الدلالة إطار جديد لـ (بالمر) وينظر: تاريخ المنطق عند العرب للدكتور محمد عزيز 88.
- (19) المنطق للدكتور محمد مهران رقم 92 من سلسلة كتابك من دون رقم صفحة.
- (20) قصة الفلسفة اليونانية لأحمد أمين وزكي نجيب محفوظ 94.
- (21) هو لودفيج فتنجشتاين (1889-1061)م تحدث عن آلية عمل اللغة اليومية (العادية) وليس المثالية، أهمها ألعاب اللغة أي إن لكل استعمال لغوي توظيف يضبطها، من مؤلفاته: (تحقيقات فلسفية وملاحظات على أسس الرياضيات) ينظر: فتنجشتاين لـ (هانس سلوجا) ترجمة: صلاح إسماعيل 24، 25، واللغة والعقل والعالم في الفلسفة المعاصرة لصلاح إسماعيل 39-41.
- (22) ينظر: النظرية اللسانية والدلالة العربية المقارنة مبادئ وتحاليل جديدة لمحمد غاليم 42.

- (23) ينظر: اللغة والكذب لـ (هرالد فاينريش) ترجمة: الدكتور عبد الرزاق بنور 75.
- (24) المنطق وفلسفة العلوم لـ (بول موى) ترجمة الدكتور فؤاد حسن زكريا 28.
- (25) المنطق وفلسفة العلوم 26.
- (26) في أصول الحوار وتحديد علم الكلام للدكتور طه عبد الرحمن 99.
- (27) في فلسفة البلاغة العربية (علم المعاني) للدكتور حلمي علي مرزوق 68.
- (28) الخطاب والسلطة لتوني فان دايك 430.
- (29) ينظر: اللغة والسحر للدكتور فالح شبيب العجمي 22.
- (30) ينظر: التحايج طبيعته ومجالاته ووظائفه لحمو النقاري 182.
- (31) اللغة والسحر للدكتور شبيب العجمي 17.
- (32) الصاحبى في فقه اللغة 172.
- (33) العمدة في محاسن الشعر وآدابه 66/2.
- (34) ديوان زهير بن أبي سلمى 14.
- (35) العمدة 66/2.
- (36) اللغة والكذب 153.
- (37) لغة التخاطب الحجاجي دراسة في آليات التناظر عند ابن حزم للدكتور مصطفى العطار 278.
- (38) اللغة والسحر 7.
- (39) ينظر: اللغة والسحر 7.
- (40) ينظر: الكذب وأثره في الإنسان ليوسف ميخائل أسعد 80 و 86.
- (41) الأحاجي والألغاز الأدبية لعبد الحي جمال 21.
- (42) ينظر: معجم المصطلحات البلاغية للدكتور أحمد مطلوب 383 وما بعدها وإحكام صنعة الكلام لذي الوزارتين 188 وجواهر البلاغة في المعاني والبيان والبيدع 301.
- (43) الشعر لأبي البركات بن زيد التكريتي ينظر: تاريخ ابن الوردي 131 ووفيات الأعيان لابن خلكان 15 ولم أعثر على ديوان له.
- (44) ينظر: المثل السائر لابن الأثير 78/3 والطراز للعلوي 37/3
- (45) موطأ مالك 1435/5 برقم 3614.
- (46) جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري 14/1.
- (47) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري 258.
- (48) البيان والتبيين للجاحظ 213/1.

- (49) ينظر: النظرية اللسانية والدلالة العربية والمقارنة مبادئ وتحاليل جديدة لمحمد غاليم 91.
- (50) سنن الترمذي 122/2 برقم 757.
- (51) تحرير التحرير في صناعة الشعر والنثر 350.
- (52) تحرير التحرير في صناعة الشعر والنثر 350 وينظر: فتاوى في العربية لابن مالك 55-56.
- (53) ديوان عبد الله بن المبارك 160.
- (54) المستطرف من كل فن مستظرف للأبشيهي 53/1.
- (55) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري مادة (ن د ر) 825/2.
- (56) البصائر والذخائر 111/1.
- (57) درة الغواص في أوام الخواص 113.
- (58) البخلاء للجاحظ 21.
- (59) البيان والتبيين للجاحظ 136/1.
- (60) البخلاء للجاحظ 64.
- (61) البخلاء للجاحظ 23.
- (62) الطراز 28/3.
- (63) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري مادة (ل غ ز) 895/3.
- (64) خزنة الأدب وغاية الأرب 342/2.
- (65) لم أعر على قائله، خزنة الأدب وغاية الأرب 342/2 وتحرير التحرير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن لابن أبي الأصبع العدواني 580 وحياة الحيوان الكبرى للدميري 286/1.
- (66) دراسات فنية في الأدب العربي للدكتور عبد الكريم اليافي 209.
- (67) الملاحن لابن دريد 157، 159 وينظر: نفسه 26.
- (68) الخطاب والسلطة لتوين فان دايك 437، وينظر: العربية وعلم اللغة الحديث للدكتور محمد محمد داود 94.
- (69) الخطاب والسلطة 438.
- (70) التحايج طبيعته ومجالاته ووظائفه 174.
- (71) ينظر: معجم الفروق اللغوية على سبيل المثال 224، 449، 450.
- (72) تاريخ الكذب لـ (جاك دريدا) 109-108.
- (73) اللغة والكذب 37، وينظر: اللسان العربي وإشكالية التلقي لحافظ اسماعيلي علوي وآخرون 15.
- (74) اللغة والكذب 37.

- (75) لسانيات الكذب بحث لحسين السوداني70 مجلة الدوحة عدد 116 عام 2017م
- (76) تاريخ الكذب 17.
- (77) منهاج البلغاء وسراج الأدباء 56.
- (78) منهاج البلغاء وسراج الأدباء 56.
- (79) ينظر: تاريخ نظريات الحجاج لـ (فيليب بروتون) و(جيل جوتيه) 77 وإنسان الكلام مساهمة لسانية في العلوم الإنسانية لكلود حجاج 331.
- (80) روضة الناظر وجنة المناظر في أصول الفقه لابن قدامة المقدسي 87/1.
- (81) المغالطات في الخطاب اليومي مقارنة تداولية لحسن الباهي ضمن كتاب التداوليات علم استعمال اللغة 387.
- (82) موسوعة مصطلحات علم المنطق عند العرب لفريد جبر وسميح دغيم ورفيق العجم وجيرار جهامي ص414.
- (83) ينظر: الأساليب المغالطية مدخلا في نقد الحجاج لمحمد النويري ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم 440.
- (84) نسبة إلى كلمة (سفسطائية) وهي: "فرقة من فلاسفة اليونان تُعنى بالجدل والتَّلَّاعب بالألفاظ بقصد الإقناع" ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة للدكتور أحمد مختار عمر 1073/2.
- (85) موسوعة مصطلحات علم المنطق عند العرب 231.
- (86) ينظر: اتجاهات الشعر العربي المعاصر للدكتور إحسان عباس 8.
- (87) ومنها: أين ومتى وكيف وحيث وإذ وإذا وقيل وبعد، وهناك ألفاظ موعلة في الإبهام والتمويه مثل غير وسوى وكل وبعض، ينظر: كتاب سيبويه 285/3، والنحو الوافي لعباس حسن 466/3.
- (88) اللغة والسحر 173.
- (89) سيكلوجية الجماهير 116.
- (90) سيكلوجية الجماهير 116.
- (91) يوجين هابرماس الأخلاق والتواصل 147.
- (92) روجين هابرماس الأخلاق والتواصل 149.
- (93) جمهرة خطب العرب لأحمد زكي صفوت 394/2 وينظر: في بلاغة الخطاب الإقناعي للدكتور محمد العمري 63.
- (94) جمهرة خطب العرب لأحمد زكي صفوت 394/2.
- (95) ينظر: دائرة الحوار ومزالق العنف 25.
- (96) أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني 109.
- (97) كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري 368.

- (98) الخطاب والسلطة 454.
- (99) معجم المصطلحات العسكرية 210.
- (100) علم الأصوات للدكتور كمال بشر 545.
- (101) استراتيجيات الخطاب للشهري 321.
- (102) دراسة الصوت اللغوي للدكتور أحمد مختار عمر 366.
- (103) اللغة العربية معناها ومبناها 350 (بتصرف طفيف).
- (104) لم أعر على قائل البيتين.
- (105) ينظر: خزنة الأدب 302/1-303.
- (106) اللغة العربية معناها ومبناها 350.
- (107) إعلام الموقعين عن رب العلمين لابن قيم الجوزية 183/3-184.
- (108) عجز بيت لأبي نؤاس في ديوانه 53 وتمامه:
دع عنك لومي فإن اللوم إغراء وداوني بالتي كانت هي الداء
- (109) ينظر: خزنة الأدب 303/1.
- (110) استراتيجيات الخطاب 318.
- (111) استراتيجيات الخطاب 318.

المصادر والمراجع

• القرآن الكريم

- 1- اتجاهات الشعر العربي المعاصر للدكتور إحسان عباس، (ت1424هـ)، الناشر: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت، الطبعة الأولى، 1978م.
- 2- الأحاجي والألغاز الأدبية لعبد الحي جمال، ط2، مطبوعات نادي الطائف الأدبي، 1401هـ.
- 3- إحكام صنعة الكلام لذي الوزارتين، لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت538هـ)، المحقق: د. علي بو ملح، الناشر: مكتبة الهلال-بيروت، الطبعة الأولى، 1993م.
- 4- الأساليب المغالطية مدخلا في نقد الحجاج لمحمد النويري ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، فريق البحث في البلاغة والحجاج، إشراف: حمادي صمود، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، تونس.
- 5- استراتيجيات الخطاب عبد الهادي بن ظافر الشهري، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت-لبنان 2004م.
- 6- أسرار البلاغة لعبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي (ت471هـ) تعليق أبي فهر محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بجدة، ط1 (1412هـ-1991م).
- 7- إعلام الموقعين عن رب العلمين لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت751هـ)، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، 1411هـ-1991م.
- 8- إنسان الكلام مساهمة لسانية في العلوم الإنسانية لكلود حجاج ترجمة: رضوان ظاظا، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-لبنان.
- 9- البخلاء لعمر بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبي عثمان، الشهير بالجاحظ (ت255هـ)، الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الثانية، 1419هـ.
- 10- البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي، علي بن محمد بن العباس (ت نحو400هـ)، المحقق: د. وداد القاضي، الناشر: دار صادر - بيروت، الطبعة الأولى، 1408هـ-1988م.
- 11- البيان والتبيين لعمر بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: 255هـ)، الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت، عام النشر: 1423هـ.
- 12- تاريخ ابن الوردي لعمر بن مظفر بن عمر بن محمد ابن أبي الفوارس، أبو حفص، زين الدين ابن الوردي المعري الكندي (ت749هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية - لبنان-بيروت، الطبعة الأولى، 1417هـ - 1996م.
- 13- تاريخ الكذب لـ (جاك دريدا)، ترجمة وتقديم: رشيد بازي، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى 2016م، الدار البيضاء-المغرب، بيروت-لبنان.
- 14- تاريخ المنطق عند العرب للدكتور محمد عزيز نظمي سالم، مؤسسة شباب الجامعة، 1983م.

- 15- تاريخ نظريات الحجاج لفيليب بروتون وجيل جوتيه، ترجمة: الدكتور محمد صالح ناحي الغامدي، مركز النشر العلمي، جامعة الملك عبد العزيز، الطبعة الأولى (1432هـ-2011م).
- 16- التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه تنسيق: حمو النقاري، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1427هـ-2006م..
- 17- تحرير التعبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن لعبد العظيم بن الواحد بن ظافر ابن أبي الإصبع العدواني، البغدادي ثم المصري (ت654هـ)، تقديم وتحقيق: الدكتور حفي محمد شرف، الناشر: الجمهورية العربية المتحدة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي.
- 18- التوقيف على مهمات التعاريف التوقيف على مهمات التعاريف، لزين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (ت1031هـ)، الناشر: عالم الكتب 38 عبد الخالق ثروت-القاهرة، الطبعة الأولى، 1410هـ-1990م.
- 19- جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة لأحمد زكي صفوت، الناشر: المكتبة العلمية بيروت-لبنان.
- 20- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع لأحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي (المتوفى: 1362هـ)، ضبط وتدقيق وتوثيق: د. يوسف الصميلي، الناشر: المكتبة العصرية، بيروت.
- 21- الحجاج لكريستيان بلانتان، ترجمة: عبد القادر المهيري، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس.
- 22- حياة الحيوان الكبرى للدميري، لمحمد بن موسى بن عيسى بن علي الدميري، أبو البقاء، كمال الدين الشافعي (ت808هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، 1424 هـ .
- 23- خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله الحموي الأزرازي (ت837هـ)، المحقق: عصام شقيو، الناشر: دار ومكتبة الهلال-بيروت، دار البحار-بيروت، الطبعة الأخيرة 2004م.
- 24- الخطاب والسلطة لتوني فان داك، ترجمة: غيداء العلي، مراجعة وتقديم: عماد عبد اللطيف، الطبعة الأولى، 2014هـ.
- 25- دائرة الحوار ومزالق العنف كشف أساليب الإعانات والمغالطة مساهمة في تخليق الخطاب للدكتور محمد العمري، أفريقيا الشرق، المغرب-الدار البيضاء، 2002م.
- 26- دراسات فنية في الأدب العربي للدكتور عبد الكريم اليافي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت-لبنان. الطبعة الأولى 1416هـ-1996م.
- 27- دراسة الصوت اللغوي للدكتور أحمد مختار عمر، عالم الكتب، 1997م-1418هـ.
- 28- درة الغواص في أوام الخواص للقاسم بن علي بن محمد بن عثمان، أبو محمد الحريري البصري (ت516هـ)، المحقق: عرفات مطرجي، الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت، الطبعة الأولى، 1998/1418هـ.

- 29- ديوان الشافعي تحقيق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، الناشر: مكتبة الكليات الأهلية، 1405هـ-1985م..
- 30- ديوان زهير بن أبي سلمى، شرحه وقدم له الأستاذ علي حسن فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، 1408هـ-1988م.
- 31- ديوان عبد الله بن المبارك (ت181هـ)، جمع وتحقيق ودراسة أ.د. مجاهد مصطفى بهجت، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض 1432هـ..
- 32- روضة الناظر وجنة المناظر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل لابن قدامة أبي محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الجماعلي المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي، الشهير بابن قدامة المقدسي (ت620هـ)، الناشر: مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية 1423هـ-2002م.
- 33- سنن الترمذي، وهو الجامع الصحيح، للحافظ أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي 209 – 279، حققه وصححه عبد الوهاب عبد اللطيف، دار الفكر للطباعة والنشر.
- 34- سيكلوجية الجماهير لـ (غوستاف لوبون) ترجمة وتقديم: هاشم صالح، دار الساقى، الفكر العربي الحديث، الطبعة الأولى 1991م.
- 35- شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم لنشوان بن سعيد الحميرى اليميني (ت573هـ)، المحقق: د. حسين بن عبد الله العمري - مطهر بن علي الإرياني، د. يوسف محمد عبد الله، الناشر: دار الفكر المعاصر (بيروت-لبنان)، دار الفكر (دمشق-سورية)، الطبعة الأولى، 1420هـ-1999م.
- 36- الصاحبى في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، المؤلف: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت395هـ)، الناشر: محمد علي بيضون، الطبعة الأولى 1418هـ-1997م.
- 37- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت393هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة الرابعة 1407هـ - 1987م.
- 38- الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، المؤلف: يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلوي الطالبى الملقب بالمؤيد بالله (المتوفى: 745هـ)، الناشر: المكتبة العنصرية - بيروت، الطبعة الأولى، 1423 هـ.
- 39- العربية وعلم اللغة الحديث للدكتور محمد محمد داود، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة - القاهرة، 2001م.
- 40- علم الأصوات للدكتور كمال بشر، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، تاريخ النشر 2000م.
- 41- علم التعمية واستخراج المعنى عند العرب للدكتور محمد مرياتي ويحيى مير علم ومحمد حسان الطيان، تقديم الدكتور شاكر الفحام.

- 42- علم الدلالة إطار جديد لـ (ف . ر . بالمر) ترجمة الدكتور صبري إبراهيم السيد، دار المعرفة الجامعية 1995م، مصر – الإسكندرية.
- 43- العمدة في محاسن الشعر وآدابه، لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (ت463هـ)، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: دار الجيل، الطبعة الخامسة، 1401هـ-1981م.
- 44- عنف اللغة لـ (جان جاك لوسركل)، ترجمة د. محمد البدوي، مراجعة د. سعد مصلوح، الدار العربية للعلوم، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، بيروت-لبنان، 2005م.
- 45- فتاوى في العربية لأبي عبد الله جمال الدين بن محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الأندلسي (ت672هـ)، تحقيق أحمد عبد الله المغربي، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى، 1425هـ-2004م.
- 46- فتحشنتاين لـ (هانس سلوجا) ترجمة: صلاح إسماعيل، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى، 2014هـ.
- 47- الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري، لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (ت نحو 395هـ)، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم، الناشر: دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة - مصر.
- 48- في أصول الحوار وتحديد علم الكلام للدكتور طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية، الدار البيضاء، 2000م.
- 49- في بلاغة الخطاب الإقناعي مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية الخطابة في القرن الأول نمونجا، للدكتور محمد العمري أفريقيًا الشرق، الدار البيضاء-المغرب، بيروت-لبنان، الطبعة الثانية، 2002م.
- 50- في فلسفة البلاغة العربية (علم المعاني) للدكتور حلمي علي مرزوق، 1999م.
- 51- قصة الفلسفة اليونانية لأحمد أمين وزكي نجيب محمود الطبعة الثانية، القاهرة، مطبعة الكتب المصرية، 1935.
- 52- كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (ت نحو 395هـ)، المحقق: علي محمد الجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت، 1419هـ.
- 53- كتاب سيبويه لعمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب سيبويه (ت180هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1408هـ - 1988م.
- 54- الكذب وأثره في الإنسان ليويسف ميخائل أسعد، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998م.
- 55- كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم للتهانوي، محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن محمد صابر الفاروقي الحنفي التهانوي (المتوفى: بعد 1158هـ)، تقديم وإشراف ومراجعة: د. رفيق العجم، تحقق: د.

- علي دحروج، نقل النص الفارسي إلى العربية: د. عبد الله الخالدي، الترجمة الأجنبية: د. جورج زيناني، الناشر: مكتبة لبنان ناشرون - بيروت، الطبعة الأولى - 1996م.
- 56- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، لأيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبي البقاء الحنفي (ت1094هـ)، المحقق: عدنان درويش - محمد المصري، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت.
- 57- لسان العرب لمحمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (ت711هـ)، الناشر: دار صادر - بيروت، الطبعة الثالثة - 1414هـ.
- 58- اللسان العربي وإشكالية التلقي لحافظ اسماعيلي علوي وآخرين، مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة كتب المستقبل العربي (55) الطبعة الأولى، بيروت-لبنان، 2007م.
- 59- لسانيات الكذب بحث لحسين السوداني مجلة الدوحة عدد 116 عام 2017م
- 60- لغة التخاطب الحجاجي دراسة في آليات التناظر عند ابن حزم للدكتور مصطفى العطار، دار كنز المعرفة للنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة الأولى، 1438هـ-2017م.
- 61- اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء-المغرب، 1994م
- 62- اللغة والسحر للدكتور شبيب العجمي، الرياض، 1424هـ-2003م.
- 63- اللغة والعقل والعالم في الفلسفة المعاصرة لصالح إسماعيل، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 2018م.
- 64- اللغة والكذب لـ (هرالد فاينريش) تعريب وتقديم وتعليق: الدكتور عبد الرزاق بنور، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة الأولى، 2015م-1436هـ.
- 65- مبادئ الاستراتيجية العسكرية لـ (جي-جي فيبيجز) ترجمة علي رمضان فاضل، مكتبة النافذة، الطبعة الأولى، 2013م.
- 66- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لنصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، الجزري، أبو الفتح، ضياء الدين، المعروف بابن الأثير الكاتب (ت637هـ)، المحقق: محمد محي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر - بيروت، 1420هـ.
- 67- مجمع الأمثال لأبي الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني النيسابوري (ت518هـ)، المحقق: محمد محي الدين عبد الحميد، الناشر: دار المعرفة - بيروت، لبنان.
- 68- مجمل اللغة لأحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: 395هـ)، دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، دار النشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثانية - 1406هـ - 1986م.
- 69- المحكم والمحيط الأعظم لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (ت458هـ)، المحقق: عبد الحميد هنداوي، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، 1421 هـ - 2000 م.

- 70- المستطرف من كل فن مستظرف لشهاب الدين محمد بن أحمد بن منصور الأبيشيبي أبي الفتح (ت852هـ)، الناشر: عالم الكتب - بيروت، الطبعة الأولى، 1419هـ.
- 71- معجم الفروق اللغوية لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (ت نحو 395هـ)، المحقق: الشيخ بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين ب (قم)، الطبعة الأولى، 1412هـ.
- 72- معجم اللغة العربية المعاصرة للدكتور أحمد مختار عبد الحميد عمر (ت1424هـ) بمساعدة فريق عمل، الناشر: عالم الكتب، الطبعة الأولى، 1429 هـ - 2008 م.
- 73- معجم المصطلحات البلاغية للدكتور أحمد مطلوب، مطبعة المجمع العلمي العراقي، 1406هـ-1986م
- 74- معجم المصطلحات العسكرية للعميد سامي عوض، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن-عمان، الطبعة الأولى، 2008م.
- 75- المعجم المفصل في علوم اللغة (الألسنيات) للدكتورين محمد التونجي وراجي الأسمر، دار الكتب العلمية، 2001.
- 76- المغالطات في الخطاب اليومي مقارنة تداولية لحسن الباهي ضمن كتاب التداوليات علم استعمال اللغة تنسيق وتقديم: حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد-الأردن 2014م.
- 77- الملاحن لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، تحقيق الدكتور عبد الإله نبهان، منشورات وزارة الثقافة، الجمهورية العربية السورية-دمشق، إحياء التراث العربي، 1992م.
- 78- المنطق للدكتور محمد مهران من سلسلة كتابك، دار المعارف، القاهرة.
- 79- المنطق وفلسفة العلوم لـ (بول موى) ترجمة الدكتور فؤاد حسن زكريا، دار نهضة مصر-الفيجالة.
- 80- منهاج البلغاء وسراج الأدباء لأبي الحسن حازم القرطاني، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، الدار العربي للكتاب، الطبعة الثالثة، تونس، 2008م.
- 81- موسوعة العلوم العربية على شبكة المعلومات العالمية (الإنترنت) بعنوان (علم التعمية)،
- 82- موسوعة مصطلحات علم المنطق عند العرب لفريد جبر وسميح دغيم ورفيق العجم وجيرار جهامي ص414. الناشر: مكتبة لبنان ناشرون - بيروت الطبعة الأولى - 1996م
- 83- موطأ مالك برواية ابن زياد، للإمام مالك (ت179 هـ)، المحقق: الشيخ محمد الشاذلي النيفر، الناشر: دار الغرب الإسلامي، الطبعة الرابعة 1982م.
- 84- النحو الوافي عباس حسن (ت1398هـ)، الناشر: دار المعارف، الطبعة الخامسة عشرة.
- 85- النظرية اللسانية والدلالة العربية المقارنة مبادئ وتحليل جديدة لمحمد غاليم، دار توبقال، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2007م.
- 86- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي (ت681هـ)، المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر-بيروت، 1994م.
- 87- يورجين هابرماس الأخلاق والتواصل لأبي النور حمدي أبي النور حسن، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، 2012م، المكتبة الفلسفية، إشراف الدكتور أحمد عبد الحلیم عطية.